

ایر یس

الكتاب: إيريس (خسوف)
المؤلف: حميد عقبي
الناشر: دار الدراويش للنشر والتّرجمة- بلوفديف- بلغاريا
Фирма Бадер



العدد: ١٣٦٠

الطبعة الأولى أبريل ٢٠٢٤

١٠٧ ص: ٢١ × ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنّما تُعبّر بالضرورة عن آراء
ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع في المكتبة الوطنية صوفيا بلغاريا : ٢٠٢٤



(ISBN) (ردمك) الورقي 1-300-98529-3 - 978

لوحة وتصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.

الصّفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر

فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة

المدير العام: بدر السويطي

للتواصل: 

الدراويش للنشر والتّرجمة 

daralDarawesh@gmail.com

هاتف: 00491627040179، ص.ب: 87600

شارع تورغوفسكا رقم ٧- ستامبوليسكي- بلوفديف- جمهورية بلغاريا.

© كافة حقوق النّشر، الطبع والاقتباس محفوظة، عدا حالات المراجعة والتّقديم والبحث والاقتباس
العادية ذكرًا للمصدر؛ فإنّه يحظر إعادة إصدار، نسخ، تصوير، ترجمة أو اختزان -ورقيًا أو إلكترونيًا- أي
جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها في نطاق استعادة المعلومات -سواء كانت
تصويرية، إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التّسجيل الفوتوغرافي أو التّسجيل على أشرطة أو أقراص
مقروءة وغيرها-، دونما الحصول على تصريح خطي مسبق من الناشر والإشارة إلى المصدر.
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرّض صاحبه للمسائلة القانونية.
*تباع النّسخة إلكترونيًا عبر موقع الدّار.

إيريس

حميد عقبي



الدراويش للنشر والترجمة®

AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
W W W . D A R A W E S H . C O M

بلوفديف - جمهورية بلغاريا

Plovdiv-Bulgaria

2024

الإهداء

إلى كل حالم وعاشق

كلمة شكر وامتنان

كل الشكر والتقدير إلى أستاذي القدير الناقد الأكاديمي
أ.د/ منير فوزي لدعمه وجهده في التدقيق والمراجعة اللغوية.
والشكر الجزيل إلى الناشر الشاعر والروائي بدر السويطي
لدعمه في نشر هذه الرواية.

شكر خاص وكبير إلى الصديق الشاعر والناقد حكمت
الحاج وكان أول من قرأ الرواية وكنت كتبها كرواية قصيرة
جدًا وبعد نقاشنا تشجعت في الاستمرار في كتابتها إلى أن
وصلت إلى هذا الشكل.

كما أشكر الصديق الكاتب والناقد سمير بية لهذا التقديم
الأنيق.

ولا أنسى شكري للصديق الشاعر نبيل شوفان لتشجيعي
على طباعة الرواية.

مقدمة

على سبيل المدخل لعوالم رواية «إيريس» :
شعرية السرد وحيوية القص

إنّ قارئ هذه الرواية القصيرة للكاتب اليمني «حميد عقبي» يجد منذ البداية نفسه منجذباً إلى متابعة ما تسرده لنا من أحداث، وما تعرضه من شخصيات؛ سرعان ما تشكّلت بينها علاقات وتداخلت في نسق سرديّ متحوّل قد يرتفع حيناً أو ينخفض حيناً آخر. ومن هنا بدا السارد عارفاً للعبة السرد متوقّعا لردّة فعل المتلقّي في إطار ما أصبح يُعرفُ بجماليّات التلقّي؛ فقد سعى «حميد عقبي» إلى جعل من يقرأ روايته يندمج فيها فلا يصيبه الملل، وهذا يعد نجاحاً للكاتب في كسب ودّه وتعلّقه بالرواية، وعليه كان على الكاتب «حميد عقبي» البحث عن آليات لغويّة وأخرى سرديّة فنيّة تحقّق لنصّه أدبيّته المختلفة، وتحافظ على تألق السرد وحيويّته؛ ممّا يحثّ القارئ على شغف القراءة، فكيف بنى الكاتب/ السارد عالمه السرديّ؟ وهل نجح في كسر الحاجز النفسيّ بين روايته وقارئها.

تتكوّن هذه الرواية القصيرة من ثلاثة فصول، الفصل الأوّل والثاني متقاربان في الطّول أمّا الثالث فهو أقصرهما. منذ البداية نجد الرّايوي وهو شخصيّة مشاركة في الأحداث يعتمد ضمير المتكلّم في سرده وفي علاقته بالشّخصيات الأخرى، لذلك سعى إلى إدراج القارئ في أسطورة مكسيكيّة، قد تجعله يتساءل عن مغزاها أو يبحث في دلالة استخدامها داخل النصّ على المستوى السرديّ الفنّي، وفي علاقتها برؤية الكاتب وغاياته من اللّجوء إلى هذه الأسطورة.

ومن خلال بداية الفصل الأوّل قدّم لنا الشّخصيّة الرّئيسيّة «إيريس» وبينّ لنا علاقتها بالمكان (القرية المكسيكيّة) وبالشّخصيّات الأخرى وخاصّة صديقتها ومدّستها «فرنندا» التي سيكون لها دور مهمّ في تطوّر الأحداث بعد نجاحها في إقناع «إيريس» بكسر حاجز الأسطورة (العادات والتّقاليد) للإفلات من موت محقّق. ثمّ ينقلنا الرّايوي إلى علاقته بإيريس؛ فيترك لها مهمّة الحكاية ثمّ يعود بعد ذلك إلى كيفيّة تعرّفه إليها، وتدفّق الأحداث وتتركز أكثر في ارتباط مباشر بشخصيّتيّ الرّايوي

وعشيقته إيريس، وهما يعيشان حياتهما اليومية بكل تفاصيلها دون الابتعاد عن تلك الأسطورة المكسيكية التي كانت تطلّ بين الحين والآخر من خلال الأحداث، وهي إحدى الطرّق التي اعتمدها «حميد عقبي» لشدّ المتلقي لمتابعة روايته بالمحافظة على حيويّة السرد، لذلك نجده يوظّف ثقافته الفنيّة والإبداعية مثل السينما، بما أنّه ينطلق من تجربته في هذا المجال، فنرى المشاهد في الرواية تحضر بقوة ممّا يضاعف من تنوّع وتيرة القصّ داخل النسيج السرديّ لهذه الرواية القصيرة. ومن جهة أخرى يسعى الكاتب إلى جعل سرده سلساً يتماشى مع تلك الحيويّة فنجد أنّ الجملة السردية التي اعتمدها في بناء عالمه السردى قصيرة وليست معقّدة أو مرّكبة على مستوى التركيب؛ وهذا يسهم في دفع مسار السرد وشدّ المتلقي حتّى لا يشعر بالملل. وهنا علينا الحديث عن اللّغة التي استخدمها الكاتب في السرد، فالمعجم اللّغوي المنتشر على كامل أجزاء الرواية وكان حضوره أبرز هو المعجم الرومانسي، وهو معجم قريب من إثارة مشاعر المتلقي وتحريكها وتحفيزها، وهذا يزيد من تعلّقه بالرواية فلا يفقد

شغفه فجأة. فالسرد بدا في هذه الرواية القصيرة نابضاً بالحياة، يستعير من الشعر ذاك الألق وتلك الشعرية؛ دون أن يتخلّى عن سرديّة السرد.

كما لا يفوتنا الإشارة إلى استخدام الكاتب لأسماء أماكن بعينها في فرنسا، وهي أماكن مرجعية عاش فيها ومازال يمارس فيها حياته، وهذه طريقة أخرى اختارها «حميد عقبي» ليجعل ذهن القارئ لا يكفّ عن البحث والتساؤل، فهي أماكن لها أبعادها ودلالاتها خاصة إذا ما ربطناها بمحتوياتها (تلك المقتنيات الدينية المتنوعة/ أو مقتنيات إيريس / أو أنواع الطعام والشراب... إلخ) أو في علاقتها بتطور الأحداث، نحو نهاية قد تكون مفاجئة وغير متوقعة في الفصل الثالث الأخير.

ملخص القول من خلال هذه القراءة الأولى: إنّ هذه الرواية التي اختار لها الكاتب أن تكون قصيرة عن وعي منه بتحوّل ذائقة المتلقي، استطاع أن يلتزم التزاماً فنيّاً بمقتضيات الكتابة الروائية، وأن يطبعها بطابعه الخاصّ فلا ننسى أنّه شاعرٌ وكاتب مسرحيٌّ وكاتب سينمائيٌّ وتشكيليٌّ وهذه الأبعاد ألقّت بظلالها

على نصّه الرّوائيّ لا محالة، فعلى قدر اكتناز الرّواية وتكثيفها على قدر حيويّتها ورؤنقها، فإذا ثقافتها من ثقافة كاتبها وثرائها من ثرائه، وهو ما يضمن قراءة ممتعة قد يجد فيها القارئ شيئاً من ذاته.

سميريّة

مساكن - تونس ٢٠ مارس ٢٠٢٤ م

الفصل الأول

رُبما لم يكن في حسابات (تالوك) أن يخلق هذه العواصف الباردة المخيفة التي لم تهدأ منذ عدة أيام وليالٍ، حدث خطأ ما، لم يفهم أحد تفاصيله ولا يدري أحد كيف حدث ومن سيصلحه، فدعوات المصلين تتعالى لعلها تصل إلى مسامع الإله العظيم (تالوك) ووعود بقرايين جديدة وضخمة، وقد أقسم سيد قرية ريفية أن يقدم أجمل جميلات المكسيك والقرية الجميلة، أن يقدم (إيريس) لتكون قرباناً للإله (تالوك)، فقط عليه أن يُوقف هذه العواصف وبأسرع وقت.

لم تعلم (إيريس) بكل تلك الهمسات والوشوشات التي تدور حولها بسبب وعد سيد القرية وكاهنها العظيم الذي لا يُعصى له أمر مهما كان. (إيريس) العاشقة للريح والمحبة للمطر تتمتع بجمال خلاق ومدّش، وهي تعيش مع أسرتها الصغيرة المولعة بديانة قديمة وثنية وتعبّد للإله (تالوك)، ربما تكون الفتاة البكر الوحيدة في القرية ومقاطعة (تلاكوبان)، هذه الأرض المحبة للقداسة والتي تعني النبتة المزهرة في الأرض المنبسطة، وكانت (تلاكوبان) إحدى المدن الثلاث المهمة في إمبراطورية

الأزتك، وهي لها تاريخ قديم، ويقال إن أصول شعب الأزتك يعود إلى (أزتلان) موطن أجدادهم الأوئل، وما تزال التنقيبات والأبحاث تحاول أن تعرف أشياء كثيرة عن هذه الأصول.

أتمت (إيريس) دراستها الثانوية وتميزت بإجادتها اللغة الفرنسية فعملت على تحقيق حلمها بالسفر إلى فرنسا. ظلت تخفي هذا الحلم وتفعل كل شيء من أجل تحقيقه، منذ ثلاث سنوات وهي تعمل وتدخر المال لهذه الرحلة وتراسل معاهد وجامعات فرنسية؛ لتحصل على منحة دراسية.

حدثت المعجزة المنتظرة وتلقت رسالة قبول من جامعة (كون) الفرنسية بالنورماندي. بقيت تخفي هذا الخبر السار عن والدها المؤمن بالإله (تالوك) والمخلص لعبادته، إنها تعرف تمامًا أن والدها سيذهب إلى الكاهن العظيم؛ ليستشيريه ويعلم ما سيقدره الإله لابنته.

(إيريس)، يسمونها (بنت تالوك) لجمالها الساحر، شعرها الطويل الأسود ينسدل إلى مؤخرتها، وصدرها البارز المزين بنهدين في تناسق بديع وجسدها يشبه (أفروديت)، في طولها

وتناسقها، كما في تمثال لها تم العثور عليه في جزيرة ميلوس اليونانية عام ١٨٢٠ م، فقط ربما يكون الفارق الوحيد في اختلاف بشرتها المائلة للسمرّة قليلاً.

حافظت (إيريس) على بكارتها ليس بدافع التدين ومحبة الإله (تلالوك)، ولكنها لم تجد في الشباب من يغريها، وكانت تميل قليلاً إلى الفتيات مثلها. ولكن حتى هذه الرغبة لم تكن تملك الشجاعة لتعلن عنها أو لتخطو ولو خطوة واحدة لتمارسها، فهي تعلم أنها رغبة محرمة وعواقب هذه اللذة ستكون فادحة.

لاحظت أن والدها يكثر من الصلوات وإشعال الشموع والبخور، وتعليق الترتيل على باب المنزل، وأن أمها تعد الماء الساخن ومرطبات الجسد والعطور الطبيعية، وتحرص على غسلها يومياً.

بسبب العواصف، لم تكن (إيريس) تخرج من المنزل، ولكنها أدركت أن هناك أموراً تحدث في الخارج. يأتي بعض القرويين بهدايا ويقفون خارج المنزل ويؤدون بعض الصلوات ثم يغادرون. ظنت أن والدها تمت ترقيته ليكون أحد كهنة (تلالوك).

ولم تكن لـ (إيريس) إلا صديقة واحدة تدعى (فرناندا) وهي معلمة في مدرسة القرية، وكانت الوحيدة التي تعلم بأسرار إيريس. جاءت (فرناندا) لزيارتها عدة مرات، لكن الأم منعتها كأنها تخاف أن تخبر (إيريس) بما يحدث حولها، وبنذر الكاهن وفرح الأب بأن تكون ابنته قرباناً وزوجة للإله العظيم.

نجحت (فرناندا) بعد محاولات كثيرة في التسسل إلى غرفة (إيريس)؛ حيث تمكنت من تسلق شجرة مجاورة لناذة غرفة (إيريس) ودخلت عبرها، وفور دخولها بدأت تخبرها بكل شيء يحدث حولها، وعرضت عليها المساعدة للهروب من هذا المصير البشع. أدركت (إيريس) أن هروبها سيسبب تعاسة لوالديها وللقرية وللمؤمنين بالعادات القديمة، وهم قلائل يمارسون عاداتهم السرية، بما فيها من طقوس غريبة وتقديم قربانين، كان أكثر ما يفزع (إيريس) هو تعذيب القربان الذي عادة ما يكون حيواناً، ولم تعتقد أن يحدث وتعود ممارسة تقديم القربان البشرية كما كان يحدث قبل أكثر من ألف عام.

كان (تالوك) يفضل أن يكون ضحاياهم من الأطفال، وكانوا يؤدون طقوس التضحية في مواعيد محددة بناءً على حساب الكهنة وعلى منازل النجوم، وكانت الضحية ترتدي زياً المخصص لهذا الطقس وهو زيّ من حرير القزّ مطعم بالفضة والقليل من الذهب الخالص، وكان كل شيء يتم فعله بتخطيط مسبق له، وبشكل كامل، حيث يتم تزيين جسد الضحية بالزهور المعطرة الطبيعية التي تنبت في أرض المقاطعة، وتمضي الضحية حاملة حول عنقها عقود الزهور والورود، أكاليل بجمال الربّ، وتاجاً من أزهار الغاردينيا، ثم تصعد إلى قمة الهرم وتسير على بساط من ورود الجوري وزهرات الياسمين حيث يباركها الكاهن العظيم للمرة الأخيرة ويتلو التعاويذ والتراتيل والأدعية.

يشق الكاهن صدر الضحية برفق فوق حجر المذبح القديم القرمزي المخلوط باللون الأسود، ويقوم بنزع القلب ليشويه في النيران المقدسة، هذه النار التي يتم إشعالها قبل تسع ليالٍ وتظل مشتعلة لمدة عشرة أيام لتتم التسعة عشر ليلة؛ حيث يأتي الناس من كل فج عميق؛ للتبرك واستلام بعض جذوات النار ثم يعودون بها إلى منازلهم للتبرك بها.

قليلون هم من يعلمون كيف تتم القرابين والمراسم، ولكن (فرناندا) العليمة ببعض بواطن الأمور حكمت كل ذلك بالتفصيل، فمنذ زمن طويل لم يُتم تقديم قربان بشريّ، وتحكي الناس وتزيد وتتخيل كيفية ممارسة هذه الطقوس، وكل واحد يضيف تفاصيل من وحي خياله، فتزداد رجفة (فرناندا) حين تتخيل إيريس بفستانها الحريري المذهب وقلائد الفضة وعقود الزهور والورود المعطرة وهي تمضي قدماً نحو إلهها ومصيرها.

لم تصدق إيريس ما تسمعه وظنت أن صديقتها تحكي نكتة أو قصة خيالية. بذلت (فرناندا) جهداً كبيراً لتقنع (إيريس) بما يحدث، وهنا ارتجف قلب (إيريس) وتصبب جبينها عرقاً، وبدأت تحلل الظواهر الغريبة التي تحدث قرب المنزل، ومشاهدتها لوالدها وهو لا ينقطع عن الصلاة، وما تحضره لها أمها من أكل خاص لا يثير الغثيان ولا يسبب التبرز الكثير، وكذلك قطع العادة الشهرية. إذن الآن فهمت كل شيء، وهم يستعدون لليلة الموعودة، التي لا يعلم أحد متى ستكون، ولكن (فرناندا) أخبرتها بأنه بدءاً من هذه الليلة سيبدأ إيقاد المحرقة، وهو ما يعني أن القربان سيتم تقديمه بعد تسع ليالٍ.

تجمدت (إيريس) وأصبحت تشبه تمثال (أفروديت)، هزتها صديقتها وقالت لها: «لولا تسلل الريح التي ظلت تتسلى بشعرك الناعم والطويل، لحسبتك تحولت إلى تمثال حجري جامد. ليس لدينا وقت للجمود، وعلينا أن نتحرك بسرعة.»

ردت إيريس بقولها: «لا يمكنني أن أبلغ الشرطة ليسجن أهلي.»

سارعت (فرناندا) بالرد وهي تقترب منها أكثر: «عزيزتي، تعلمين أن مثل هذه الطقوس القديمة تقام في سرية، لا أحد يعرف مكان المذبح ولا لحظة توقيت القربان، وهم يأخذون احتياطات كثيرة. وحتى إذا أبلغنا الشرطة، فلن يجدوا المكان ولا أحد يعرف كبير الكهنة، وكذلك فإن القرويين لا يتحدثون ولا يمكن أن يشهدوا لأحد.»

إيريس: إذن الحل هو الهروب، ولكن سيلحق العار بعائلي وستحل عليهم وعلى القرية اللعنات.

فرناندا: أظن أنك تملكين جواز سفر وحاصلة على قبولك بالجامعة الفرنسية، وأنا سأكون معك لأنني لو بقيت هنا

سيحرقونني بتهمة إفساد القدّاس . لنستغل هذه الفوضى وهذه العواصف، ونتحرك الليلة إلى (تلاكوبان) ثم إلى العاصمة ونطلب الفيزا إلى أقرب بلد أوروبي. بخطاب الجامعة يمكنك الحصول على الفيزا ربما في نفس اليوم، وأنا لدي فيزا تصلح لأسبانيا. نهبط في مدريد ثم أذهب معك إلى فرنسا. (إيريس)، تعلمين أنني أحبك وبوسعنا هناك أن نكون عائلة أنا وأنتِ إلى الأبد. أشعربك وأعلم ميولك المثلية وأنتِ تعشقينني كما أعشقتك. ما بيننا ليس صداقة بنات، إنه الحب، فلماذا نعذب أنفسنا بالفراق ونحرق رغباتنا بالخوف.

أتابع وأستمع إلى (إيريس) وأنا أتصور المشهد بكل تفاصيله التشويقية المدهشة، ومن لحظة إلى أخرى أحرق بصدرها وتارة بساقيها وفخذيها، فهي تجلس على كرسي مقابل لي وكأنها تشعر بنظراتي، وتحاول أن تنزل تنورتها القصيرة جدا، تنظر لي وكأنها تطلب أن أغض بصري، أبتسم وأفعل ذلك.

أسألها: وماذا حدث بعد ذلك؟

تستوي في جلستها وتكمل الحكاية: «ساعدتنا العواصف

والرياح المجنونة، خصص الكاهن الأعظم مجموعة من الرجال لحراسة بيتنا، كانت (فرناندا) ذكية. درست الأمر جيدًا وخططت لكل شيء، وأنا جمعت أوراقى وجواز سفرى وهربنا في الليلة نفسها إلى (تلاكوبان) ومنها إلى العاصمة، وفي ظرف يومين حصلت على الفيزا إلى فرنسا، وأخذنا طائرة إلى مدريد وقد لا تصدقني عما حدث بعدها!»

بقيت صامتة لأكثر من دقيقة شاردة الذهن. أخذت جرعة من كأسها النبيذ الوردى، وأنا شربت ربع كأسى من نبيذ بوردو الأحمر وهو نبيذى المفضل وبعدها بدأت تتحدث وجسدها يرتجف:

- «تصوّر، قبل رُبع ساعة فقط من وصولنا إلى مدريد، تعرضتُ طائرُتنا لمطبات هوائية مفاجئة. شعرنا بالموت وواجهناه، رُبما كانَ غضبُ الإله (تالوك)، وفي اللحظة الأخيرة هبطتُ طائرُتنا في مطار مدريد بعد أن أصبحنا أشبه بالأحياء الأموات. أخذنا - بعدها - تاكسي من المطار إلى المدينة ثم تقلب الطقس فوقعت لنا حادثة بشعة، ماتت بسببها (فرناندا) أما أنا فلم أصب إلا بجروح سطحية خفيفة. هل كان هذا انتقامًا

من (تالوك) لـ (فرناندا) بسبب مساعدتها لي؟ بقيتُ أعيشُ الصدمة لأسابيع وما زلتُ أعيشُ فيها حتى اللحظة.»

بدأتُ تبكي بمرارة، بقيتُ أنا واجما لا أعرف ماذا أفعل.

تعرفتُ على (إيريس) خلال إقامتي لمعرضي الفني التشكيلي بقاعة (بالاس دي أرت)، الذي كان في فترة تعج بالعواصف الباردة والمطر المتواصل، لم أنجح في بيع أية لوحة ولكنني كسبت صداقة هذه الفتاة الساحرة. لجأتُ إلى قاعة المعرض لتحتمي من البرد والمطر العاصف، فرحبتُ بها وأعددتُ لها فنجان قهوة يمنية خاصة. من لحظتها نشأتُ بيننا صداقة ومودة، تعجبني كثيرًا تحليلاتها للوحاتي وطيبة روحها وبساطتها.

أخبرتني أنها مكسيكية وتدرس اللغة الفرنسية بجامعة كون النورماندي، وأنها تقيم في استديو صغير بالشارع البارد بوسط المدينة، وكانت تفاصيل هذا الشارع وأزقته تذكرني بمدينة صنعاء القديمة، خاصة الأبواب والأزقة المرصوفة بالحجر ومحلاته الصغيرة لبيع الأشياء التراثية وحاناته القليلة القديمة. رائحة الحجر ولون زجاج النوافذ وأبوابه الخشبية العتيقة، كل هذه الأشياء تخلق رائحة خاصة لهذا الشارع.

أن يكون لي صديقةً في هذا الحي فهو شيء يشبه حلمًا وأمنيةً قديمة تمنيتها منذ سكنت هذه المدينة. كان من عاداتي أن أزور هذا الشارع ولو لمرة واحدة بالأسبوع وأجلس في إحدى حاناته ولو للحظات. معرفتي بهذه الفتاة وطُد علاقتي بهذا الزقاق، وجعلتني أعود لتذكر أزقة صنعاء القديمة وسوق الملح ورائحة التوابل والنبيد الصنعاني اللذيذ.

كأن (إيريس) بدأت تعشق مدينة (صنعاء) بسبب وصفي المتكرر لها في كل لقاءاتنا في الشارع البارد. تتجول على قدميها في كل تحركاتها، وتخشى أن يعصف الإله (تالوك) بأي حافلة تستقلها. إنها موقنة تمامًا أن هذا الإله لن يسمح لها بالزواج من غيره أو حتى أن تمارس اللذة مع أي مخلوق آخر.

طلبتُ كأسًا ثانية من النبيد الوردية، بينما طلبتُ الكأس الثانية من النبيد الأحمر.

تحولت (إيريس) إلى جزء من برنامجي اليومي، نلتقي في الحانة اللاتينية التي تتميز بسقفها المصنوع من الأخشاب السوداء الضخمة، وبجدرانها من الحجر الأبيض الكبير والأضواء

الناعمة، ورغم أن الحانة اللاتينية لا تقدم مأكولات لاتينية، لكن اسمها والمرور بجانبها يدفعك للدخول وقضاء لحظات هادئة لشرب كأس أو فنجان قهوة، وقد تحولت هذه الحانة لمكان نتواعد فيه، نجلس للحديث لساعة وأحياناً أكثر، ثم أرافقها إلى مسكنها وتناول العشاء معاً.

أحياناً أقوم بطهي وجبة يمنية، وأحياناً أخرى تقوم هي بتحضير وجبة مكسيكية. تتقن إعداد لفائف (البوريتو) وتقوم بتحضيرها باستخدام خبز (تلاكسكالي) المصنوع من الذرة، الذي يشبه الأسطوانة، وتحشوه باللحم والجبن والأرز والفاصوليا والفلفل الحار.

أنا أجيد عمل الكباب اليمني مع السحاويق التهامية، والسحاويق خلطة من الطماطم الطازجة والكزبرة والبقدونس والكمون، وهي تساعدني في تحضير العجينة المكونة من اللحم البقري المفروم والبطاطا والكزبرة وعشبة البقدونس، وكثيراً ما نبتكر عناصر جديدة نضيفها عند طهيها لهذه الأكلات اليمنية المكسيكية.

تعلمت من (إيريس) أشياء كثيرة ومنها قداسة الأكل، كنت أملك أدوات طبخ وصحوناً ومستلزمات طبخ عادية، وكان من عاداتي أن أشتري ما يلزمي بسعر رخيص ولا أهتم بالماركات ولا حتى بنوعية المواد الخام التي تصنع منه هذه الأشياء، لكن (إيريس) نبهتني إلى ضرورة اختيار مواعين الطبخ ذات الجودة الجيدة المصنوعة من مواد طبيعية خالصة لما لها من تأثير ساحر في جودة ما نطبخه، تخلصت من كل تلك الأدوات القديمة وبدأت استشير (إيريس) لشراء أدوات جديدة تُصنع من الفخار ومن المواد الطبيعية، وكان الطعام بالنسبة إليها ليس لملء البطن بقدر ما يحدثه من متعة لذيدة، تتحدث كثيراً عنها فتقول:

-تعلمت من جدتي وكانت سيدة ذات خبرة كبيرة في إعداد الطعام وطهيه وكذلك تحضير المائدة، تعلمت منها معرفة جودة الأعشاب والبهارات ومعطرات الأكل؛ وذلك بالشم وتلمس الأشياء والتمعن في لونها، وكنت مساعدة لها منذ طفولتي، توفيت قبل عام من حادثة غضب (تلالوك). كانت جدتي مؤمنة بهذا الإله ومخلصة له، وأعتقد أنها كانت سترفض وتمنع أن يفكر أحد في قتلي وتقديمي قرباناً، كانت تحبني وتباركني

بصلواتها وترانيمها الرقيقة، أفقدتها كثيراً وأفقدت بركاتها فقد كانت تمنحني الطمأنينة والراحة والسلام.

تناول الطعام والشراب ونمزح، وفي كل مرة تحكي لي وتكمل قصتها كما لو كانت فيلماً. قصتها تكبر في رأسي، وربما تكون فيلمي الأول الطويل إذا وجدت إمكانيات إنتاجه. لم أكن أعرف المكسيك كثيراً ولا الإله (تالوك)، ومع صداقتي لـ (إيريس) بدأت أبحث عنه وأحاول معرفته.

لست من المولعين بخوض صراعات مع الآلهة، ولا أحب التحدي أو الخضوع التام لهم. عندما أعرف اسم إله، أسارع للبحث ورؤية اللوحات أو التماثيل التي أبدعها بعض الفنانين عنه. لم أجد صوراً جميلة تجسد الإله (تالوك) ولكنني وجدت بعض المعلومات حول هرم الحية المجنحة أو معبد الثعبان المجنح أو الهرم الثالث في مدينة (تيوتيهواكان) القديمة بالمكسيك. يُقال إن طقوس تقديم القرابين البشرية كانت قديمة جداً وتعود إلى القرن الثاني الميلادي، وهناك أيضاً هرم الشمس وهرم القمر.

رأيت العديد من الصور لرأس (تالوك) في بعض المنحوتات،

وتظهر في بعضها أسنانه بارزة قليلاً. أخبرني (إيريس) أن أصل عائلتها يعود إلى منطقة (كوتلينشان) ولكنني لم أكن أثقل عليها بالأسئلة حتى لا يتجدد حزنها على عائلتها وقريتها المنكوبة.

ربما بسبب ما حدث لها، أصبحت حساسة كثيراً وتحزن بسبب الحروب والكوارث التي تعصف بعالمنا، وربما هي تعطف عليّ وتواسيني؛ لأنني من بلد دمرته الحروب وجعلته تعيشاً منكوباً.

لا أتشاءم من العواصف والرعد والريح، بل أعشق الشتاء. أخبرت (إيريس) بتلك الليلة الشتوية مع عشيقتي السابقة، (حورية)، في تلك الليلة النوفمبرية المترعة باللذة. منعت العواصف حورية من مغادرة مسكني، ووافقت أن تنام عندي على أن أكون عاقلاً. ليلتها، منحتها الفراش الوثير والأغطية الدافئة، كأنها شعرت ببرودة جسدي في السرير الصغير. دعتني للنوم بجانبها، حكيت لها حكايات لطيفة ومثيرة، تقاربنا، التصقنا. خفت أن أزعجها، فنهضت معتذراً، قبلت اعتذاري على أن ننام عقلاء، ثم بدأت تتقرب، فعلنا بعض المداعبات اللطيفة، ثارت الرغبة، نهضت وطلبت مني بكلمة صريحة، رددتها بصوت مسموع وواضح:- لنفعلها.

ثم امتطت جسدي، قبّلتني وهزّنتني إليها، خلعتُ ملابسني وطلبت بإشارة من رأسها أن أخلع بيجامتها. تلاقى الشفاه بالشفاه والساق بساق بمداعبات استمرت لأكثر ساعة، فعلت بي ما لم تفعله أي امرأة. أعادت خلقي وتكويني بفنية عالية، ففعلناها ثلاث مرات.

أشعر أحياناً أنني أكرر قصتي وليلة اللذة الأولى مع (حورية) وبصيف وقوالب سردية وصورية متعددة وكأني أرسل إلى نفسي أمنية أن تتكرر مثل هذه الليلة ولكن مع (إيريس)، كأنّ هذا الفعل المكرّر هو أيضاً تلميحات مغرية أرسلها إلى (إيريس) ويبدو أنها تفهم هذا ولذلك بدأت تقاطع كلامي عن (حورية) وتذهب بي إلى حكايتها أو شيء جديد عن نفسها، فهمت أنها تسحبني بهدوء نحوها، وتريدني أن أمسح كل ذكريات مغامراتي وغرامياتي الماضية.

كأنّ (إيريس) ستكون الطريق لأنسى حكاياتي مع (حورية). ذهبت (حورية) ولم أعد أعرف عنها أي شيء. مرت سنوات طويلة ولم نلتق، وربما أصبحت لها حياتها الخاصة.

كنت بحاجة إلى (إيريس) قوس قزح ورسول الإله إلى البشر. لكن (إيريس) هذه أرق الرسل، تعشق اللون الأبيض وتهرب من قدر مقلق. تأتي في زمن أحتاج فيه إلى امرأة لتعيد تكويني، لتمسح خيالاتي الماضية وتخلق مني شاعرًا جديدًا وبأدوات جديدة. مرت أسابيع ثم شهور ونحن نعيش كأصدقاء ورفاق دون ملامسات جسدية جريئة. هي تأتي إلى شقتي وأنا أذهب لمرافقتها إلى باب مسكنها وانصرف، تُفضل شقتي لنفعل كل ما نريده لأنها واسعة، نشرب ونطبخ ونأكل ونتحدث، نضحك ونرقص ونغني. فقط الملامسات الجسدية محدودة وبالصدفة قد اصطدم بصدرها أو مؤخرتها. تمنحني بعض العناقات اللطيفة والقصيرة جدًا، فهي تخاف أن يحل علينا غضب الإله (تالوك). أخبرتني (إيريس) عن مصير بعض الأشخاص الذين حاولوا التقرب منها، خاصة (إيفان)، وهو شاب ربما من أصول روسية. يجيد الأسبانية وتقرب منها كثيرًا، حاول أن يغريها بممارسة الحب، ولكن في الليلة الموعودة وهما يتناولان العشاء، أصيب بحادثة مرعبة حيث علقت بحلقه شوكة سمكة، وكاد (تالوك) أن يقتله.

منذ تلك اللحظة، هرب (إيفان) وأصبح يتحاشى حتى تحية (إيريس). كما حدث مع الفتاة الشابة الأسبوية (جيد. ك)، حيث بعد تواصل وصدقة، تدفقت الرغبة وجهزت (جيد. ك) موعداً رومانسياً، وانتهى الموعد بإسعاف (جيد. ك) بسبب انفجار الزائدة الدودية.

بسبب هذه الحوادث، فضلت (إيريس) الوحدة والصدقات الخفيفة خوفاً من غضب (تالوك) وتفننه في خلق حوادث رعب قاتلة ليفسد أي مواعيد رومانسية معها.

أشعر بخوفها من حدوث كارثة لي كلما كبرت المودة بيننا، وأنا أيضاً شعرت بالرعب في لحظات كثيرة، وكأن هناك قوة خفية تسجن هذه الفتاة الساحرة في متاهات الوحدة والحزن.

أكاد أنسى (حورية) وتلك الليالي الملاح، وكل ما كتبه عنها، والفضل يعود إلى (إيريس). بدأت أشعر براحة نفسية ولم أعد مولعاً بمراجعة مشاهدي الجنسية الساخنة مع (حورية)، ولا صلواتها ورقيتها ليكون عضوي أكثر قوة.

تقبلني (إيريس) كلما نلتقي بثلاث أو أربع قبلات بالخذ،

وكذلك عند لحظة فراقنا. يحدث أن تمسك بكف يدي وتقبلها، وأنا كذلك أفعل ذلك معها. نجلس على الأريكة وتلتصق بي، تختار من الملابس ما يغري أي رجل، وهي تفضل الفساتين والسر اويل القصيرة جدًا والفانيلات التي تجعل نهديها بارزين مكشوفين. كذلك تفضل الملابس التي تجعل نصف ظهرها العلوي عاريًا، وتجعل السرة وما تحت السرة ظاهرًا.

تختار ملابس خفيفة الوزن قصيرة جدًا والأكثر شفافية. تميل إلى الألوان الفاتحة ومشتقاتها، وتهتم بجعل ساقها وفخذيها ملساء شديدة النعومة بفضل بعض الكريمات الطبيعية المعطرة. ولكنها فتاة تلبس ثلاثة سر اويل داخلية. تحب الأحذية الخفيفة، وتحرص على أن تلف حول رقبتها وشاحًا حريريًا خفيفًا. تطلق شعرها ولا تحب أن تربطه أو تعيق عبث الريح ومزاحها لها. هي ابنة الريح وعاشقة المطر.

عكسي ربما، فأنا أحافظ على ارتداء الجاكت الشتوي حتى منتصف الصيف، وأميل إلى الألوان الغامقة والرمادية، رغم أنها قد لا تتناسب مع بشرتي السمراء الفاتحة أو اللون القمحي، وقد

لا أهتم بتسريحة شعري ولا أضع أي مرطبات أو كريمات على وجهي.

كثيراً ما تتحدث (إيريس) عن صديقتها (فرناندا)، ومن وصفها لها ولجسدها يخيل لي أنها تشبه الممثلة تشارلي تشيس، بيضاء البشرة ويبلغ طولها حوالي المتر وسبعين سم، مغرية وجريئة. نعم، كانت شجاعة وتواقة إلى اللذة. تتحدث (إيريس) عنها وتعيدني إلى الليالي الثلاث من قصة هروبها من قريتها، ثم إلى (تلاكوبان) وبعد ذلك إلى سيتي مكسيكو، ثم مدريد. تأخذ (إيريس) السيجارة من بين أصابعي وتأخذ عدة نفثات، تراقب دوران الدخان في سقف صالة شقتي، تتنهد، تبتسم ثم تحكي لي:

-نعم، كنتُ شديدة الانجذاب إلى (فرناندا) مؤمنة بذكاؤها وحُبّها لي، وتمنيتُ أن تترجمَ مشاعرنا إلى مواقف ولحظات لذّة لا تنتهي، وكنا نخططُ للمتعة عند وصولنا إلى مدينة مكسيكو. هناك، أخذنا غرفةً مشتركةً بسريرٍ واحد، ولكن مع لحظة دخولنا الغرفة، أُصِبت (فرناندا) بمغصٍ وتقلصات بالرحم والألم الموجه. اتفقنا أن نؤجل ممارسة الحبّ إلى مدريد. كنا

نسمعُ لهاثنا وهمسات أشواقنا، تتدفقُ رغباتنا، ولكن آلامها كانت تزداد وتحملت كلَّ هذا لنصلَ إلى بر الأمان. بعد أن غادرنا مطار مدريد بسيارة تاكسي، كان كلُّ شيءٍ على ما يُرام. وبعدَ لحظات انقلبَ الطقس وكشرت العواصف عن أنيابها. هو (تالوك) القاهر، ضربَ بيده القاسية وشعرتُ أننا نحلق في السماء. جعلَ سيارتنا تتقلب لثلاثين مترًا، وكأنه انتزعَ (فرناندا) من مقعدها وقذف بها على مسافة تسعة عشرة مترًا بالضبط، لا تنقص ولا تزيد سنتيمترًا واحدًا. تهشم وجه (فرناندا) الجميل. فقدتها وبقيتُ أعيشُ ليالي مرعبةً لوحدتي.

تبكي وتتوقف للحظات، تنهض، تنظر إلى السماء عبر اللوح الزجاجي الذي يفصل صالة بيتي عن البلكونة الصغيرة ثم تكمل:

- علمت بعدها أن (تالوك) انتقم من قريتي، دمرها وأحرقها ولم ينبجُ منها أحد، قيل أن المحوّل الكهربائي بوسط القرية أصابته صاعقة مدمرة، كانت بيوت قريتنا متلاصقة، وكانت الجدران تدعم بعضها البعض؛ فكنا نسمع ضحكات

بعضنا وآهات بعضنا البعض، وكنا نتقاسم الفرح والأغاني والرقص، كذلك الأحزان، لكن كل شيء هناك تفحم!، لم يرحم (تالوك) صبيًا ولا طفلة ولا رضيعًا ولا حتى كبار السن والعجزة، أكلت النار كل شيء، الحياة كلها، شعرت بالندم رُبما لو أني استسلمت وآمنت بقدري لبقيت القرية ومن فيها. لأن أصبح كل شيء متأخرًا، ورُبما هذا ما جعلني أدخل في صراع طويل مع (تالوك)، فهو الإله الجبار القاتل وأنا (إيريس)، لا أكثر ولا أقل ولكنني لن أمكنه من نفسي.

أكتب لها بعض القصائد تخفف أحزانها الأليمة، وأهديها بعض الورود التي تحبها وأسعى للبحث عن أشياء تسرها. تفهم (إيريس) رغبتني فيها التي تكبر كل يوم بل كل لحظة، انجذب إليها وكأنها قدري الجيد والجديد الذي كنت أنتظره وحتى فارق السن والعمر بيننا يذوب بالتدرج وكأنني أتوهج بالشباب، هي الآن تتجاوز الخامسة والعشرين وأنا الرجل الأربعيني، وأجدني كمن يحاول تقليص هذه الفوارق بتقليل التدخين وممارسة الرياضة والاهتمام أكثر بمظهري.

كأنها تدرك كل هذه الوشوشات بداخلي وكثيرا ما تبعث لي ببعض التطمينات وتقول لي:

- غادرت قريتي وفقدتها منذ ثلاث سنوات، تحل لعنة (تالوك) على كل من يتقرب مني، أعلم برغباتك بي وأنا كذلك أرغب أن نفعل كل شيء، مضت ثلاث سنوات من تمردي على (تالوك) وربما يجب أن ننتظر أكثر، لا أريد أن أرمي بك إلى جحيم هذا الإله العنيف.

لنحمي أنفسنا من (تالوك) فنحن نحرص على إشعال الشموع الملونة والبخور، سكني يقع على مقربة كيلو متر من الجامعة ويحتوي على صالة وغرفة نوم ومكتب صغير، إضافة للمرافق والمطبخ، وهو يتسع لنا نحن الاثنين، وافقت أن تترك سكنها الضيق الصغير وتأتي لمشاركتي مسكني وأنا أعلم شرطها أو شرط (تالوك)، أي ألا يكون بيننا أي علاقة حميمة، هي لاتزال عذراء ونشاطها الجنسي ينحصر أنها تمارس الاستمناء الذاتي بواسطة بعض الألعاب الجنسية اللطيفة مرة بالشهر وأحيانا مرة كل الشهرين، منذ تعارفنا ومع بعض الملامسات

اللطيفة لم أعد أفكر كثيرًا بالجنس، ثمة لذة فائقة المتعة وأنا بقربها، وهذا التقارب أصبح يغنيني عن كل شيء، بالمساء ننام على سريرين متقاربين، تمنحني بعض القبلات وقد ترتمي في حضني ثم تنزع رأسها وتبتسم وتعود إلى سريرها.

اشترت نبات الصبار وسمعت أنه يُعتبر أقوى من مئة تعويذة. هي اشترت صليبا وتمثالاً صغيراً للسيدة العذراء وجعلته في غرفة النوم. حصلت على جدارية آية الكرسي مع لفظ الجلالة ووضعتها على جدار الصالة بجوار ساعة حائطية بلا عقارب. واشترت لها قلادة كف فاطمة.

يبدو بيتنا كأنه متحف؛ حيث تتجمع العديد من الأشياء فيه، مثل تمثال بوذا وتمثال جسد السيد المسيح، وأشياء هندوسية متنوعة، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة لبعل ورع، الذي يُعد إله الشمس لدى المصريين القدماء، وتمثال الوعل اليميني بوصفه رمزاً من رموز الإله عثر، حيث يُعد حامياً للبيوت والأحياء والمدن والقبور، ويُقال أيضاً أنه يتشابه مع عشتار في بلاد ما بين النهرين.

أصبح بيتنا كأنه معبد لكل الأديان. لست ممارسًا نشطًا للطقوس الدينية، ولكنني لا أستطيع أن أبدأ يومي بدون صلاة الصبح، حتى في الصباحات التي أعاني فيها من الشالة حيث أهرع إلى الماء وأغتسل كمن يعمد نفسه في الماء. لاحظت (إيريس) ولعي بهذا الطقس وطلبت مني أن أعلمها هذه الصلاة. علمتها ما يقال ويقل، وأصبحت تؤديها وتسبقني أحيانًا بفعلها.

لم نكن نفكر في دين جديد يجمع طقوسًا مختلفة. مع كل يوم، نوغل في بعض الخرافات القديمة ونأخذ بعض العلامات لنزخرف بها جدراننا.

نعلم جيدًا أننا بالغنا بكل هذه العلامات الدينية المتنوعة من المشرق والمغرب والتي أصبحت تتوزع على الجدران وعند مدخل الباب وأعلى نوافذ الغرف وغرفة النوم، ولا نفهم كثيرًا ما نفعله وكأننا نبحت عن قداسة لتقنع الإله (تالوك) أن يتركنا وينسى أمر (إيريس) وتعلقه بها.

تحدث (إيريس) وتسالني وتسال نفسها، حينها يتحول حديثها هذا هذيانًا مبهمًا ونقول: «أرجوك أن تتحملني، وربما

تكون كل هذه العلامات الدينية لا رابط بينها أو ثمة روابط خفية. لا أدري ولست مختصة بالعلامات الدينية، وقد يكون وجودها يتعارض مع ديانتك. أحياناً أشعر وفي بعض اللحظات أن رمزاً أو علامة وضعناها هنا تبعث لي بوميض روحي خافت ويكون للحظات، ما يجعلني محبة للحياة، ولم أفكر ولو للحظة في الانتحار، هو النور الذي قذفته جدي في روحي. لم يكن (تلالوك) شيراً وكان ولا يزال إله آبائي وأجدادي منذ عشرات القرون. البشر هم من يفسدون الآلهة أو يشوهون صورها في نفوسنا. أنا موقنة أن كاهن قريتي ابتكر فكرة تقديمي كقربان واستغل سذاجة أبي المؤمن والأعمى في إيمانه، أو أنه طمح أن يكون مساعداً للكاهن الأعظم. أنا مشوشة وكأن ما حدث ويحدث هو تهيؤات مرضية، لكنني أقسم أنني شاهدت مشهد موت صديقتي (فرناندا) ولم يكن مجرد حادث طريق بالسيارة؛ فقد كانت تجلس بجانبني وربطت حزام الأمان بشكل جيد ونبهتني أن أفعل ذلك وفي منتصف الطريق انفجر إطار السيارة بالجهة اليمنى الأمامية، وكأن يدًا خفية غاضبة جذبتها وانتزعها من مقعدها ورمت بها تسعة عشر مترًا».

نعود قرب السابعة إلى البيت، نتشارك في الطبخ. أصبحت (إيريس) تجيد عمل السحاويق اليمنية وأنواع الخبز اليمني مثل الملوخ واللحوح، وكذلك تتفنن في عمل الشفوت التهامي، وأنا أجيد بعض الأكلات المكسيكية الشعبية، وخاصة (التاماليس) وصلصة (الغواكامولي) من الأفوكادو، وسلطة (بيكودي جالو)، وهي خليط من السلطات مع القليل من البصل المقشور والليمون.

كل واحد منا قد يعمل بعض التعديلات اللطيفة المبتكرة عند إعداد الطبق الذي يحضره، وتكون الجعة وشراب السيدر النورماندي مع نبيذي الأحمر ونبيذها الورددي.

أحبت إيريس اللحم المندي بالطريقة اليمنية وكبسة الرز البرياني، وكنا نختم ليلتنا بالشاي الحليب بحب الهيل والقرنفل والقليل جدًا من القرفة وبعض الزنجبيل، فهو مشروبنا الأخير، ثم نشاهد فيلمًا أو نتحدث. هي تحكي لي عن طفولتها وعن قربتها، ومع مرور الأيام والليالي بدأنا نشعر بعدم الخوف من غضب (تالوك). قلت لها ذات مرة:

- لا أعتقد بوجود إله أناني يكره الحب أو يدمر مخلوقاً بسبب
العشق، ربما أنكِ تظلمين (تلالوك) أو هو يحبك ويريد أن يطمئن
عليك مع شخص يعشقك بصدق.

بدت تقتنع قليلاً بما قلته. قلت ذلك بشكل عفوي ولم أقصد
أن استميلها لممارسة اللذة. مع مرور الوقت وتقاربنا أكثر فأكثر،
بدأت تصرفاتنا أكثر عفوية. فهي لا تتحرج من تبديل ملابسها
أمامي، ولم تعد تلبس ثلاثة سراويل داخلية. عندما أشعر أن
أشياء الذكورية تنهض خلال ملابسنا ومزاحنا، أسرع
وأضع وسادة على فخذي. وهي تبادر وتبتعد قليلاً، وكأنها تفهم
وتعي تماماً ما يحدث لي. وعندما تهدأ الأمور، نواصل مزاحنا
الطفولي.

ذات مرة كنتُ في إحدى الحانات بالشارع البارد بصحبة
صديقة وزميلة قديمة. بالصدفة، مرت (إيريس)، لمحتني.
توقفت وتسمرت بمكانها قرب رصيف الحانة. نهضت للترحيب
بها، حيث تحركت بخطوات هادئة، بدت وكأنها غاضبة، وأنا
أعرف ملامح وجهها عند الغضب، إذ تقبض عضلات وجهها

وتغيب ابتسامتها المشرقة، وتمهز برأسها إلى الأعلى ثم الأسفل. عرفتُها بمليكة، زميلتي القديمة. سرعان ما استدارت معتذرة بدعوى موعد مهم في عيادة الأسنان، تركتني دون تقبيلي.

في ذلك المساء، ارتدت (إيريس) بيجاما طويلة الأكمام، وهذه المرة الأولى التي أراها ترتدي بحشمة، فهي لا تطيق مطلقاً هذا النوع من الملابس الذي يستر جسدها كاملاً. شعرت أن الجو مكهرب، ولا تزال غاضبة، وفهمت أنها تغار عليّ. كنت فرحاً في داخلي، امرأة تغار عليك يجعلك تشعر بأهميتك كرجل.

من عاداتنا نسأل بعضنا عن أحداث يومنا وعن ما فعلناه وما سنفعله في الغد. فوجئت بسؤالها:

- كان يومك ممتعاً مع مليكة، أكيد أنت مرهق للجهد الذي بذلته؟

سارعت بالدفاع عن نفسي وأنا أقترّب منها، لكنها أخذت تبتعد وتتحاشى التلامس. قلت لها بكلمات مرتبكة:

- مليكة مجرد زميلة عادية، تراجع معي ترجمة لسيناريو

مكتوب بالفرنسية وسأعطيها أجرها. مجرد بيزنيس صغير ولا شيء بيننا.

ظلت صامته لبعض الوقت، ثم بدأت تبتسم قليلاً:

- ألا يكفي أننا نعيش في هذا المكان خمسة. نعم نحن خمسة، أنا وأنت وحرورية وفرناندا وفوقنا وحولنا الإله تالوك. المكان أصبح ضيقاً بنا الخمسة، أنت تسكنك حوريتك عشيقتك السابقة، وأنا تأسرني فرناندا، وييمين علينا تالوك، ولا ندرى ما يخططه لنا من فجائع. أنا خائفة، أريدك أن تتحرر من حرورية هذه ولا تخبرني بشيء عنها.

قاطعتها وأنا أقسم بأي نسييت حرورية وأصبحت من الماضي البعيد البعيد. هنا نهضت نشطة وأسرت بتبديل ملابسها وعادت بشميز نوم قصير وشفاف، وأسرت تحضني على إعداد العشاء، كل لحظة يزداد ولعي وإعجابي بها، وأفكر بطرق لتخلص من الكابوس المرعب (تالوك).

تحدثُ بيننا عديد من المناقشات، وقد زاد شغفها باليمن وحكايات الملكة بلقيس والخرافات المحيطة بها. يتضخم

اعتقادها بالتشابه بين المكسيك واليمن، حيث قدمت تحليلاً لفكرتها مشيرةً إلى وجود العديد من الخرافات المتشابهة في البلدين، فضلاً عن بعض التشابه في المناخ والجغرافيا. طلبت مني أن أناديها بـ (إيريس) اليمينية أو أن أطلق عليها اسم (بلقيس). أخبرتني أن عرافة القرية قالت لوالديها أثناء حمل أمها بها أن مولودتهم ستسافر إلى أرض بعيدة بمدينة ذات نخل وتحب رجلاً يحب الجوافة. فعلاً، فاكهتي المفضلة هي الجوافة، ومدينتي بيت الفقيه التهامية، هي واحدة من أهم مدن النخيل في اليمن والجزيرة العربية، ويزداد عشقي لـ (إيريس) كل لحظة.

لم يعد لحورية وجود في أحاديثنا ولا حديث هناك عن (فرناندا)، كان الحديث الأخير عنها بمناسبة ذكرى يوم موتها، حيث أشعلت (إيريس) تسعة وعشرين شمعة وجعلتها مشتعلة إلى الصباح؛ ثم رمت ببقايا الشمع. أنا كذلك لم تعد تضرب رأسي مطارق الذكريات، بقي فقط تهديد (تالوك).

ذهبنا إلى قس بالكنيسة القديمة وبارك (إيريس) وحدثها عن بركة يسوع وقدرته في حماية أطفاله ومحبيه، وطلبت مني أن

نذهب إلى شيخ جامع ليقرأ على رأسها، فعلنا ذلك وتبرعت بسخاء لصندوق الجامع.

في إحدى المرات، رأينا كاهناً بوذيًا وسارعت لطلب بركته ومنحنا نسخة من الكتاب المقدس الخاص بالبوذية والذي يسمى (تيرافادا).

قامت بشراء نسخ بالأسبانية والفرنسية لعدة كتب، بما في ذلك مختصر تعاليم الهندوسية (فيدا) وكتاب يحوي نصوصًا من نشيد الغورو رامداس السيخي، ومختصر مفيد لكتاب الأفيستا الذي يعد الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية. أنفقنا الكثير من المال لشراء كل هذه الكتب وغيرها، وقمت بشراء قنينة من ماء زمزم المبارك لها، مما جعلها تشعر براحة نفسية كبيرة وأصبحت أشبه الراقي الخاص.

نجحت في جعلها تشعر بالراحة ولم تعد تنهض مفزوعة من نومها بسبب الكوابيس المخيفة.

كنت دائمًا أبتكر طرقًا للحصول على المزيد من الملامسات، وسمحت لي ببخّها بالماء الذي أتلو عليه نصوصًا من قصائدي،

وهي تظن أني أتلو نصوصاً مقدسة ودينية. كنت أبتسم كأني (أحمد زكي) في فيلم «البيضة والحجر»، وأسعى إلى جعلها سعيدة حتى لو اضطررت لممارسة بعض الدجل والشعوذة.

لا أستطيع أن أنكر دور (إيريس) في إحداث متغيرات كثيرة فيما أكتبه وأبدعه. تخلصني مع كل عناق من شبح الموت وأقنعتني المتعددة المقلقة. أكتب بطلاقة رهيبة، وأهرب إلى المستقبل بحب وشوق، أهرب من الموت والموتى وأندفع إلى حضنها في كل مناسبة. كما أن تصرفاتي الشهوانية تحولت إلى رومانسية ساحرة وكأنها روضتي لتلك التجارب المثيرة، أجد نفسي ملتصقاً بها أكثر حتى وهي شبه عارية.

تطلب مني تدليك ساقها وفخذيها وظهرها، وأعجز أن أروض أشيائي الذكورية فأنا رجل ولا يمكنني أن أكون ملاكاً. لم تعد تتضايق وتفر عندما ينهض ذلك الشيء، وتمنعي من أخذ وسادة فاصلة، لكنني أشعر ببعض الحرج وأهتف لذلك الشيء أن يخفض رأسه

لا أتصور وجود الليل بدون (إيريس)، وأنا أتقدم كثيراً

في تخليصها من كابوس (تلالوك). بدأت أفكر برسم صورة جديدة لهذا الإله ليكون من بين الآلهة اللطيفة الداعمة للعشق. أرسلت إليه بعض القصائد وقلت له: كن الإله المبارك للحب والسلام والحياة. كتبت له عن معاناة (إيريس) وخوفها، وسألته: لماذا تمنع إنسانة بسيطة من التلذذ بالحياة؟ ألا تكفيك كل تلك القرايين والدماء المسفوكة في الماضي؟

أصبح مصيرنا مشتركاً، أنا و(إيريس) نتشابه كثيراً كأننا أبناء الخرافات والأقدار المتعبة. نبحث عن كل ما هو مقدس في هذا الكون ولدى كل الشعوب، ونستعين بكل التعاويذ والأناشيد لتخلص من قسوة (تلالوك). أحقاً هل يريد لها لنفسه أم أن ما يحدث هو أوهام وتخيلات رسخت في نفسها ونقلتها لي؟

أنا أخافه أكثر من ملاك الموت، وأكثر من ذلك الجنّي الذي كان يرعبني في طفولتي. أحكي عن الجنّي الذي يطلي جسده بالخناء وفي مؤخرته ملعقة كبيرة. نعم، رأيته أكثر من مرة وأنا طفل، وكنت أصاب بالرعدة وأذهب إلى الدباش كي يوسمني ويكويني بالنار، ولا تزال بعض آثار هذا الكوي تظهر على جسدي.

كنتُ كل ليلة أعترف لساحرتي (إيريس) بخطيئة أو ضعف، كأنها مرآتي، تطهرني من كذبي وضعفي، أنا كذلك كنت بالنسبة لها الراقي والكاهن والشاعر، وتحولت نصوصي تغزلاً بجماها وسحرها، كأننا خلّقنا لنخلّص بعضنا من المتاهات والألم والحزن، بنبي فردوسنا الجديد، مملكتنا الخاصة، نخطط لمستقبل العالم، عالم خالٍ من الحروب والخوف والجوع والفوضى البشعة. يزداد تقاربنا الروحي وملامساتنا الجسدية، لم تعد تتخرج (إيريس) من الدخول إلى الدوش أثناء استحمامي، وكثيراً ما تنسى منشفتها وتناديني أن أدخل وأعطيها إياها، تستدير وأرى مؤخرتها، أو تضع يديها أسفل البطن وأرى كل شيء عدا ما هو أسفل الصرة.

منحتني (إيريس) الخيال لرؤية أخرى للكون، وبدأت مراجعة ما كتبته ورسمته سابقاً، ثم قررت أن أذهب إلى الأمام وألا أكون أسيراً للماضي والتاريخ والتجارب القديمة، آمنت بأننا جميعاً بشر، وقد نرتكب حماقات ونؤمن بأوهام، المهم ماذا نريد من الغد؟

ما الذي سنورّثه للجيل القادم؟

أسئلة كثيرة يعجّ بها رأسي طول النهار، أما الليل فهو ليل (إيريس) وحدها، هي ربة الليل والقمر والنجوم، هي ملكة النور والصباحات والمطر.

كلما تمطر السماء تجرني (إيريس) إلى الخارج لنبتل ونرقص معاً، يضحك بعض المارة لأفعالنا الصبيانية، لم نعد نبالي بأحد ولم يعد يهّمنا أحد في هذا الكون، كأننا نجمع قوانا لنهزم الإله (تالوك)، أو لنقنعه ونروضه ليكون الإله الطيب، فهذا الكون لا يحتمل المزيد من الأنانية والشر ومصاصي الدماء.

أنادي (إيريس) وأقول لها أنت تشبهين مدينة صنعاء حوت كل فن، وتشبهين مدينتي (بيت الفقيه) جنة الخلد، علمتني بعض الرقصات اللاتينية وخاصة رقصة السالسا التي حاولت تعلمها مرات عديدة، فهي رقصة عناقات وملامسات ساحرة، وأنا علمتها رقصة الليوة اليمينية، ورقصة الحقفه والتنيقةزّة التهامية، نلتصق ونلتحم كجسدين ونهدم كل الفواصل، أنا أو من بها وهي تؤمن بي ويقل حديثنا عن (تالوك).

كأننا ننتظر اللحظة الساحرة وهدية السماء وبركاتهما، يزداد سحر وجمال (إيريس)، وهذا يجعلني أعجز عن فراقها حتى بالنهار، كنت أرافقها وأنتظرها بساحة الجامعة، هي أيضًا يزداد تعلقها بي وبدأت تدير أغلب أموري المالية والإدارية، وترجم معا بعض نصوصي إلى الأسبانية، فهي أنا وأنا هي كروحين حللنا بدنا، لم تعد أية فواصل بيننا عند المنام، باتت تبدي تصرفات أكثر شجاعة مني، خاصة عند تقبيلي، فتمسك بي متعلقة وتقبل فمي، وأحيانًا تضرب على رأسي عندما أكون بحالة جمود خلال هذه العناقات، وتقول: تذوق شفتي كشاعر.

ولدتُ كي أكون شاعرًا ومن طينة الشعراء، وحلمت بعشيقه تعيد خلقي وتكويني، وخضت تجارب فاشلة وعانيت من هجر عشيقه، كأن القدر يراجع حساباته ليرسل (إيريس) الملاك الأنيق المتعب الخائف، نحطم سلاسل الخوف والكوابيس والرعب الذي خلقه (تالوك)، فبوسع البشر تقويم وتهذيب بعض الآلهة؛ وكأن هذه الفلسفة والأمنية بدأت تتحقق، فبتنا أنا و(إيريس) نحلم بعالم يقدس الحب والعشق ويجنح إلى السلام،

صحيح أنه من الصعب أن يتحول جميع البشر إلى ملائكة، لكن يكفي أن نكون جميعاً بشرًا.

مضت تسعة أشهر بالضبط منذ حياتنا المشتركة الهادئة المليئة بالفرح، عدا الجنس. منذ ليال عديدة، تطلب (إيريس) مني أن ألصق سريري بسريرها ولا أضع وسادة صغيرة كحاجز بيننا. نصحو في الصباح ونحن في حالة تعانق، تنهض لتقبلني ثم تتهيا للبرنامج الصباحي، وأهم شيء عندها: الاغتسال وصلاة الصبح. تشعل شمعة وترفع رأسها لتحية العذراء وبوذا وبقية الآلهة، ثم نتشارك في إعداد الإفطار وتناوله، ونسير معاً إلى الجامعة، يذهب كل واحد منا لمشاغله. نلتقي أحياناً للغداء، تظل طقوسنا ووجبتنا المقدسة هي العشاء، ونجتمع في البيت بين الخامسة والسابعة.

يقترّب الشتاء من نهايته ولكنّ الجو يتغير بصورة مرعبة غير طبيعية. تزجر العواصف المجنونة وتضرب النوافذ كأنها ضربات أرجل شيطان مخيف. بدت ليلة ٢٧ فبراير، ليلة غير عادية برعبها ولذتها اللاحدودة.

لم أكن أتصور أن تكون هذه الليلة، ولم أتخيلها أو أخطط لها. كل شيء حدث بسرعة، إنها تذكرني بليلة ماثلة حدثت لي قبل سنوات مع حورية.

عدت إلى البيت قبل الخامسة وأنا مبتل تمامًا، وأشعر أن البرد يهشم عظامي ويشل أطرافي. أسرعت لتبديل ملابسي ولبست بيجاما شتوية ثقيلة ودافئة. سرعان ما دخلت (إيريس) بنفس هيئتي، مبتلة وجسدها يرتجف. أسرعت لتنشيف رأسها وجسدها، أغلقت النوافذ جيدًا وأسدت الستائر، أعددت لها ولي مشروبًا ساخنًا من الزنجبيل والقرفة والقرنفل، ومزجته ببعض النبيذ القليل من العسل. هدأت فرائصها المرتجفة وألقت نفسها تعانقني بحرارة وشوق.

من عاداتنا أن نتعانق كل ليلة وكل صباح، وعندما تشعر أن جرعة العناق تزيد عن حدها، تسحب نفسها بلطف ورقة، وأنا أحاول تهدئة أشيائي الذكورية والعودة لحالتي الطبيعية. هذه الليلة، ظهرت (إيريس) مختلفة وكأنها أفروديت بعنفها الصارخ المغربي. نزعت نفسها برفق ثم اتجهت إلى خزانة المطبخ،

أحضرت زجاجة فودكا وكؤوس صغيرة، ملأت أربعة كؤوس وأشارت لي بمشاركتها.

قلت لها: «عزيزتي، الفودكا خداعة ولعينة.»

ردت ضاحكة: «سنلعبها ونلعن كل شيء، كن شجاعاً ولا تعص لي أيّ أمر.»

شربنا الكأس الأول ثم الثاني وسرت الحرارة في جسدنا. تحررنا لنعدّ العشاء، اللحم المندي وأطباق جانبية مكسيكية. نطبخ ونشرب. بدلت (إيريس) ملابسها ولبست بيجاما خفيفة قصيرة حريرية، وأنا خلعت فانيلا البيجاما الثقيلة. امتزجت روائح شوى اللحم بروائح البهارات اليمينية والمكسيكية. أشعلنا البخور والشموع، وكثرت بيننا العناقات الساخنة ولم تعد تسحب نفسها عندما تشعر بنهوض أشياءي، كأنها تريد المزيد من النهوض والنشاط.

في اللحظات الأولى لدخولها، اعتقدت أن (تالوك) جاء لينتزع (إيريس) ويدمرني ويدمر المدينة والكون، ولحسن الحظ

فقد جعلتني كؤوس الفودكا وجسد (إيريس) الساخن المستعر
بالرغبة أن أنسى (تلالوك) وكل الآلهة.

تحول المكان إلى جنة فردوسية معطرة بمزيج من الروائح.
عطر (إيريس) يهزم كل هذه الروائح، ولأنني وعدتها بالسمع
والطاعة المطلقة، فقد تشار كنا بسيجارة حشيش. ضجّ المكان
بالموسيقى وأغاني المكسيك وخاصة أغاني ناتاليا لافوركاد.

وبدوري، ولأنني مولع بالأغاني اليهودية التراثية اليمنية، فقد
اخترت أغنية «خطر غصن القنا» بصوت علي بن علي الأنسي
وأغنية «الا يا لله رضاك» للفنانة اليمنية شمعة.

أكره الفودكا وأخاف منها، ولكنها بدت لي هذه الليلة
كشراب فردوسي يجعل الرغبة تثور وتتمادى كبركان يكتسح كل
شيء، تمدت (إيريس) في مداعباتها وتماديت في الطاعة وتلبية
ما تريده، وفي لحظة ما، كأن الزمن توقف ولم أعد أتذكر بقية
تفاصيل ما حدث.

في صباح ٢٨ من فبراير، العاشرة منتصف الصباح، كأني
كنت غائباً عن هذا العالم، شعرت بعناقات (إيريس) الدافئة

العطرة، ومع اللحظة الأولى فتحت عيني اليمنى ثم اليسرى،
وجدت (إيريس) تحمل كأسًا من عصير مكون من الجينسينج.
بدت بكل جمالها وأناقتها وسحرها، مدت لي الكأس وأخذت
تقبل فمي وتغرس رأسها بصدري، ثم تحركت لرفع الستائر
وفتح جزء من نافذة غرفة النوم لتدخل أشعة الشمس الدافئة،
نهضت لمتابعة ما تفعله (إيريس) والتي بدت سعيدة بهذا الطقس
البهيج، راحت تضحك وتغني مقطعًا من أغنية الفنانة شمعة:

الا يالله رضاك

الا والماء يسقي الروم

الا يالله تف. - تفرح كل قلب مظلوم

الا بنيت لك خلوة

الا خلوة والورد لاوي

الا هو من سلاه، هو من سلاه

سلا قلبي وأنا الهوى وي.

بدت فرحة، كأنها مخمورة بهذه الأغنية، ترقص وتصفق وأنا
بقيت مشاهدًا لما تفعله. ثم هزت رأسها مبتسمة:

- «فعلناها يا بطل، هزمننا (تلالوك).»

بدأتُ أستعد لمغادرة السرير وأنا أحاول أن أتذكر ما حدث، سارعت (إيريس) لتعانقني وهي بملابس الخروج. وعندما تماديتُ لفعل شيء أكبر من العناق، سحبت نفسها بسلاسة وخفة، ثم أصلحت شعرها وودّعتني بقبلة على شفتيّ، ووعدتني أن نكمل هذا اللعب في المساء. وقالت:

- حبيبي وبطلا الخارق، لدي اختبار شفوي آخر وغداً تبدأ نتائج اختباراتي، أنت تستحق أن تعود إلى النوم كأمر أنيق وتنام حتى الظهيرة، وسأعود عند الخامسة بعد الظهر؛ لنكرر ما فعلناه الليلة الماضية.

- قلت لها:- ولكن أرجوكِ بدون فودكا، سأشتري نبيذاً جيداً وكل ما نحتاجه، لا تتأخري.

سارعت إيريس بالخروج، وبقيت للحظات أحاول استحضر ولو لقطة أو صورة من هذه الليلة التي انتظرتها، وضعت رأسي على الوسادة وأخفقت في التذكر، ثم استسلمت لنوم عميق حتى الظهيرة.

الفصل الثاني

منذ لحظة استيقاظي، بدأت التحضير لهذه الليلة وجعلت نفسي جاهزاً كما لو كنت عريساً. شربت مشروب الجنسج وحلقت لحيتي ومناطق أخرى. حاولت تأخير السجارة الأولى قدر الإمكان وتناولت فطوراً خفيفاً. ثم ذهبت إلى عدة أسواق وانتقيت بحذر بعض الأعشاب والمعطرات، اشترت اللحم الذي تحبه (إيريس) من محل (مارسيل)، أشهر لحام في مدينة كون. كأني أتسابق مع الزمن للعودة مبكراً، وفعلاً وصلت قبل الرابعة إلى المنزل. قمت بعمل تبيل اللحم بطريقة تعلمتها من (إيريس). كل شيء يسير على ما يرام، وكلما خطوات خطوة، نظرت إلى الساعة الحائطية، منتظراً حلول الخامسة.

أشعلت بعض البخور وفتحت جهاز اللابتوب لاختيار أغنية من أغاني المفضلة. قلبي يخفق بدقات متسارعة، أحاول أن أبتعد عن أي توتر، مخافة حدوث عطل جنسي؛ حيث يمكن أن يكون التوتر الزائد مصدراً لردة فعل سلبية، خصوصاً في هذه المسائل والعلاقات الجديدة.

يمضي الوقت ببطء شديد جداً، دقت الساعة الحائطية خمس

دقات بصوت خافت. بقيت أسير وأعود إلى الباب منتظرًا دخولها. خلقت لها بعض العذر، فمواعيدنا تكون بين الخامسة والسابعة، ويحدث أن يتأخر أحدها ربع أو نصف ساعة. بقيت في حالة جمود لأكثر من ربع ساعة، ثم انتفضت للبدأ بتحضير العشاء، ولكن تقاليدنا منذ أن انتقلت للسكن معي، أن نشترك بالطبخ حتى لو تأخرنا بتناول العشاء. خشيت أن أكسر هذه القاعدة فأتسبب بمنغصات تفسد ليلتنا.

نزلت إلى أسفل العمارة وبقيت قرب المدخل وأنا أراقب الطريق الذي تأتي منه، فهي لا تركب الترام ولا الحافلة، وتؤدي كل مشاويرها مشيًا. يمضي الوقت ويرمي بداخلي بأثقال وشكوك مرعبة، مع تجاوز الوقت السابعة هنا فقط فكرت أن أتصل بهاتفها، هي تملك هاتفًا بسيطًا وعاديًا وليس لها أي حساب على وسائل التواصل الاجتماعي. اتصلت بها ولم ترد فتركت لها رسالة لطيفة وأني أنتظرها، عاودت الاتصال مرات ومرات ولا رد.

مع حلول التاسعة زاد قلقي واشتدّت مخاوفي وبقيت لا

أعرف ماذا أفعل ولا أعرف أي صديق أو زميل لها. راجعت رسائلها معها، وكان آخر تراسل بيننا قبل شهر تقريباً. في الشهر الأخير نكاد لا نفترق، هي تذهب إلى جامعتها وأنا أذهب لورشة الرسم أو أجلس بإحدى حانات الشارع البارد للكتابة، نذهب أحياناً إلى سينما (كافيه دي إيساج)، وقد نجلس بمقهى السينما فلنا هناك طاولة بزاوية هادئة، يكون بحقيبتها كتابٌ وتقرأ وأنا أكتب. لم أتحمل الانتظار بالبيت، قررت الخروج للبحث عنها في الأماكن التي تعودنا أن نذهب إليها، تركت لها رسالة لطيفة وأن تتصل بي فور قدومها، نزلت وخضت رحلة بحث خائبة. في المقهى اللاتيني وجدت أن ثمة تغيرات طفيفة حدثت وخاصة في الإضاءة. وجدت أن وجوه النادلّات متغيرة وكنا نحظى بترحيب جيد من النادلّة (سيلين). أخبرتني إحدى النادلّات بأن تغيرات حدثت واشترى الحانة مالك جديد وتغير الطاقم بأكمله. عرضت عليها صورة (إيريس) لكنها اعتذرت بأنها لم تنتبه. لم يعطيني أي أحد ردّاً يبعث في قلبي بعض التفاؤل. بقيت أهيم من حانة إلى حانة ومن شارع إلى شارع حتى

الثانية بعد منتصف الليل. عدت إلى البيت منهكاً للغاية، رميت بجسدي المتهالك على الأريكة في الصالة ونمت كالمنذوبح.

استيقظت حوالي العاشرة صباحاً، وللحظات كأني غير مستوعب لما حدث ويحدث. وجدتني نمت بملابسي وحذائي وبمعطفي الشتوي. نهضت وبدأت أسترجع مشاهد ما حدث منذ نهوضي بالأمس وحديثي مع إيريس ومدحها لي بوصفي البطل الذي هزم (تالوك)، وأنا فعلناها ومررت بقية المشاهد سريعة إلى عودتي المتأخرة بعد بحث خائب عنها.

قررت أن أخصص هذا اليوم أيضاً للبحث عنها، وستكون البداية من الجامعة. أشعلت سيجارتي الصباحية وأعددت قهوتي بسرعة، دون المرور بطقوس تحضير القهوة وتناولها بحسب الطقوس التي تجبها (إيريس).

جهزت نفسي للخروج في دقائق سريعة. بدأت أعد خطة البحث لهذا اليوم مع وصولي إلى قسم الأدب الفرنسي. طفت على لوحات الإعلانات ودققت فيها جيداً، ولم أجد اسم (إيريس). ذهبت بشجاعة إلى سكرتيرة القسم وسألتها. رفضت الموظفة أن

تعطيني أي معلومة. ترجيتها وبذلت جهدًا كبيرًا حتى أقنعته
أن تقول لي ولو كلمة عنها.

سألني عن لقبها، تجمدت في مكاني كالآخرص والحقيقة لا
أعرف لقبها واسم عائلتها ولم أسأها عن ذلك طيلة علاقتنا.

قلت للموظفة إنها صديقتي واسمها إيريس وجنسيته
مكسيكية. أشفقت الموظفة لحالي وردت: «اعتذر ليس في كشفنا
طالبة سنة ثالثة مكسيكية بهذا الاسم، ربما لها اسم أول غير
هذا ولا أقدر بمساعدتك أكثر من هذا. لا يحق لنا أن نعطي
معلومات عن طلابنا. أنت مقيم في فرنسا وتعلم هذا.»

شكرتها لجهدا وتفهمها. خرجت من مكتب الموظفة وأنا
أسأل كل من يقابلني في أروقة القسم إن كان يعرفها، وفي كل
عشر دقائق أتصل برقمها. تذكرت أنها قالت لي أن لديها مشكلة
بالرقم وقد تبدل الاشتراك بشركة أخرى.

عدت إلى البيت وأنا أنذر النذور متمنيًا أن تكون قد عادت
سالمًا، تذكرت أن البيت يحوي عشرات العلامات الدينية وكأنني
نسيت ما يوجد بالبيت منذ غياب (إيريس)، عدت أبحث في

كل زاوية وركن لعلي أعثر على رسالة، بدأت بعض المفاجآت تظهر وكانت أولها أني عثرت على النسخة الثانية من المفاتيح ومن هنا بدأت تتكاثر الأسئلة في رأسي، هل نسيت (إيريس) المفاتيح أم تركتها عمداً وهل أخذت ما تريده، اللذة للمرة الأولى واستخدمتني كمفتاح لهذا الباب المغلق؟

كان بوسعها أن تصارحني، العشرة بيننا والحياة في بيت واحد دامت لتسعة أشهر وقبلها بشهرين كنا نلتقي ونتحدث ونشرب معاً؛ أي بالضبط أحد عشر شهراً، وعدت إلى تاريخ معرزي ووجدت أن اللقاء كان نهاية شهر أبريل وبالضبط يوم ٣١ أبريل وهو يوم لا يمكن أن أنساه.

بدرت بذهني فكرة أن أتصل بشركة الاتصالات وأسألهم عن لقب إيريس، هي محاولة رغم علمي أنهم سيرفضون وفعلاً اتصلت بخدمات العملاء، ورفضوا وبقيت أحاول وأتصل مرات عديدة وفي المرة السابعة وقعت بيد موظف لطيف وبعد أن أعطيته الرقم والأسم الأول (إيريس)، سألني عن عنواني واسمي ولقبني وطلب مني الانتظار لدقائق، ثم كانت المفاجأة الثانية التي لم أتوقعها.

قال لي الموظف :-

-عفو يا سيد هذا الرقم مسجل باسمك وعنوانك، والكارت ليس اشتراكًا شهريًا، ولكن يتم تعبئة الرصيد من أي محل للتبغ؛ وهو مسجل من يوم ١٣ إبريل العام الماضي.

أنهيت الاتصال وأنا أحاول العودة للقاء الأول، وأتذكر أنها أعطتني الرقم يومها، أشعلت سيجارة كأني أحاول جمع أجزاءي المبعثرة وحل هذا اللغز الجديد.

عدت للبحث في ملابسها القليلة، لديها ثلاث بيجامات وثلاث لبسات للبيت وثلاث لبسات للخروج، صندل للبيت وحذاء للخروج، لم تكن (إيريس) تشبه الفتيات في حب التسوق وكثرة الملابس والحقائب، وجدت حقيبتها اليدوية والصدمة أنني وجدت هاتفها، كان بوضعية الطائرة وخارج الخدمة، فتحته وبحثت فيه لم يكن مسجلًا به إلا رقم واحد هو رقمي، راجعت الرسائل بيننا وكانت رسائل صغيرة وأغلب ردها على رسائلي هي العلامات وخاصة علامة القلب الأخضر والأبيض والأزرق.

تتفجر الأسئلة والشكوك في رأسي، ولا أعرف إذا كان لها هاتف آخر، لم يسبق لي ولا مرة تفتيش حقيبتها وأشياءها، انهمكت بقراءة عناوين كتبها وجميعها كتب في الأدب الفرنسي والمكسيكي وروايات قصيرة، فتشت بعض دفاترها ووجدت أن صفحاتها بيضاء، لا يوجد أي كتابة على هذه الدفاتر.

قفز في ذهني اسم (جيد . ك)، نعم أتذكر أن (إيريس) أخبرني بواقعة فتاة أسيوية كانت صديقتها ووصلت العلاقة لممارسة اللذة، أخذت هاتفي للبحث عن هذا الأسم على الإنترنت والغريب أن هذا الاسم موجود وحقيقي ولكنه يعود لممثلة أمريكية نجمة أفلام البالغين وهي من أصول أسيوية ولها أفلام كثيرة، تجمدت للحظات، زادت الشكوك، وشعرت أنها لم تكن ربما صادقة في كل حكاياتها، أهي اخترعت الاسم أم أنه تشابه في الأسماء والألقاب بخصوص تلك الصديقة.

بدأت الكثير من الأشياء والعناصر في حكايتي مع (إيريس) لا تركب مع بعضها، كقصة مشتتة مبعثرة يعصف بها اللامنتطق واللاواقع، توقفت لتأمل الجدران وما عليها من رموز ودلالات

دينية وأسطورية مختلفة، تأملت نبتة الصبار وأدركت أنها تحتاج إلى سقاية، انتزعت جسدي من حالة التجمد وتحركت لسقي نبتة الصبار والاعتذار لها، ثم أشعلت شمعة بقرب مدخل الشقة، وتذكرت أنني لم أتناول أي لقمة منذ الأمس، وكنت لا أشعر بالرغبة في الأكل، تذكرت أنني لم أتناول وصفة السكر والكوليسترول، وبدالي أنه لم يعد هناك شيء يهمني من هذه الأمور، كان كل تفكيري وتركيزي في عودة (إيريس)، وأتخيم بالأمل في بعض اللحظات فأظن أنها تصعد الدرج، وأسرع لاستقبالها فلا أجد إلا الفراغ الصامت.

لمحت قنينة النبيذ، تحركت لفتحها وأخذت كأسًا، رفعتة إلى فمي وأخذت جرعات صغيرة، أشعر أن هذه الجرعات تتدحرج إلى جوفي كحجر ملتهب، شعرت بغثيان مزعج أجبرني إلى الركض إلى الحمام كي أفرغها من معدتي، رأسي منتفخ ويدور ككوكب سماوي فقد مساره وجاذبيته ولا يأبه لمصيره أحد.

غسلت فمي ووجهي وتناولت حبات العلاج، وغرزت بفمي قطعة من الكاكو الجيد جدًا، تعشق (إيريس) الكاكو

وأصبح من المأكولات ذات القداسة بالنسبة لي، منذ تعلق
بحب هذه الفتاة التي علمتني ما لم أكن أعلم من الأشياء ذات
القداسة والمحفة للخيال والسكينة، شعرت بالراحة والنشاط
والرغبة لمواصلة البحث فربما أغضبته، ربما قبل ليلة أمس
لم أكن بالمستوى المطلوب في إمتاعها، يقال إن المرأة قد تفر من
الرجل إذا خاب أو كان ضعيفاً و(خيخة).

من حوارنا الأخير قبل مغادرتها كانت ملامح وجهها مشرقة
مبتسمة، تضحك، تغني وترقص، نعم قبلتني وعانقتني عناقات
حارة ووعدت بأن نعيدتها ونفعلها بشجاعة وحب وبدون
فودكا، كان هذا اتفاقنا، ربما حدث لها مكروه، عدت لتصفح
الحوادث بالمدينة بالأمس واليوم، لا يوجد حادث مروري
أو حادث قتل، مثل هذه الحوادث تعلن عنها الشرطة وتكثر
تفاصيلها على المواقع الإخبارية والصحفية بالمدينة والمقاطعة.

جمعت قواي وتوجهت إلى مقهى سينما (كافيه دي إيجاج)، وهو
من الأماكن المحببة لي، وكثيراً ما دعوت إليها (إيريس) مرات
كثيرة، يعرفني الجميع هناك ويرحبون بي، يوجد ركن محبب لي

هناك حيث الجأ إليه للكتابة وتسجيل فيديوهات نقد وتأملات سينمائية عقب مشاهدتي لبعض الأفلام، عندما وصلت إلى هناك وجدت زاويتي ومكاني المحب خاليًا، وضعت حقيبة الظهر، كالعادة حظوت بترحيب وابتسامات خاصة من النادلة اللطيفة (ماري)، لا أدري كيف أطرح عليها السؤال وما سيكون من رد فعل.

تشجعت والقيت عليها التحية ثم سألتها: - عفوا سأخذ من وقتك دقيقتين.. هل تسمحين لي بذلك؟

ابتسمت وردت: - تفضل، أنا في خدمتك؟

قلت: - العفو.. أنا زبونكم منذ فترة طويلة وأعتبر المكان بيتي الثاني.. أود أن أعرف إن كانت صديقتي (إيريس) مرت عليكم بالأمس أو اليوم، تعرفينها، هي تجلس معي كثيرًا؟

ثم عرضت عليها صورة إيريس على شاشة هاتفي.

حدقت النادلة بالصورة، تأملتها بجدية وتركيز ثم هزت رأسها بلا.

كررت سؤالِي ووصفت شكل (إيريس)، شعرها الطويل
وأنها فتاة مكسيكية.

ردت ماري ونظرت إلي مبتسمة :

- أنت تأتي كثيرًا وتأخذ تلك الزواية وتنكب بالعمل والكتابة
على جهازك اللابتوب، منذ أشهر عديدة بدأت بعادة غريبة
ولافئة للنظر، وهي أنك تطلب قنيتين من الجعة أو كأسين من
البيبز ويكون واحد أحمر والثاني ورديًا، أي تطلب طلبين وتكون
بمفردك، تأملناك، كنت تشرب من الكأس الذي يكون قريبًا
منك جرعة، ومن الكأس الثاني المقابل لك جرعة، نعرف أنك
كاتب ولكل كاتب طقوسه حتى وإن كانت غريبة، لم يكن أحد
يجلس معك وتأتي وتغادر لوحدك.. لم أر وجه هذه الفتاة أبدًا.

هنا شعرت أني أتثلج من قدمي، بدأت البرودة تتسلق إلى
ساقِي، أردت أن أنسحب من هذه المحادثة، أن أتصنع ابتسامة،
وجهي كصخرة باردة، بصعوبة كبيرة حركت قدمي اليميني
ثم اليسري وكدت أن أقع أرضًا، بخطوات ثقيلة عدت إلى
مكاني، وبعد دقائق قليلة جاءت (ماري) تحمل قنيتين من الجعة

ووضعت واحدة بجانبى والثانية مقابلة لي، بدت حركتها عادية وعفوية، هزت رأسها مبتسمة تحضني أن أناديها لأي خدمة جديدة.

لم أحتمل البقاء كثيرًا في مقهى السينما، فانتقلت إلى الحانة اللاتينية والشارع البارد. أمشي وتأمل الوجوه، صادفت فتاة تسير أمامي وتبدو من الخلف كأنها (إيريس). كاد قلبي يقفز من الفرح، فأسرعت للحاق بها وظهرت وكأنها تسرع في مشيتها، ربما شعرت بوجودي وخافت أن أتحرش بها. تمكنت من اللحاق بها، أدارت وجهها نحوي، توقفت وأنا أحاول احتواء الأمور قائلاً معتذراً: «آسف جداً، ظننتك صديقتي.»

أكملت سيرها وأنا بقيت بدون حركة للحظات. اتجهت إلى الحانة اللاتينية، هناك وبالصدفة وجدت النادلة (أليكسس). نعم، كانت تقدم لنا المشروبات. سلمت عليها، تذكرتني ورددت التحية. للحظات بدأت أحاول صياغة سؤال بعناية حتى لا تشعر بأني أحمق أو مختل. سألتها بلطف: «لو تمنحيني أربعين ثانية من وقتك، أود أن أسألك هل رأيت صديقتي (إيريس)،

الفتاة المكسيكية؟ كنا نجلس لتلك الطاولة بالزاوية في تلك الحانة الهادئة؟»

ثم عرضت لها صورتها، تأملت الصورة، تمنعت فيها جيداً، هزت رأسها من اليمين إلى اليسار وردت معذرة: «لا، لم أشاهدها ولا مرة. أنت تجلس لوحده وتفتح جهاز حاسوبك. أتذكر أنك كنت تطلب طلبين خاصة كأس نبيذ أحمر والآخر كأس نبيذ ورديّ. أخبرتني أنك تكتب روايات. تعلم أن هذا حي فني ولكل فنان طقوسه.»

قاطعتها بلطف: «هي كانت تشكر بالأسبانية، وأنت أخبرتها أنك تدرسين اللغة الإسبانية.» ردت: «صحيح، كانت الحوارات قصيرة جداً بيني وبينك. أعتذر، يجب أن أنصرف، صديقي ينتظرن بالخارج. جئت فقط لشيء سريع هنا، لم أعد أعمل هنا والحانة تحولت لمالك جديد.» تركتني واقفاً، وكلما يحدث لي مثل هذا الموقف، أشعر بتحجر بارد ينبع من أسفل قدمي ويمتد إلى منتصف بطني.

ناديت كل القوى الداخلية فيّ لكي أكون قادراً على التحرك

ومغادرة هذه الحانة، وأنا أنظر إلى طاولتي الخالية في الزاوية حيث يغمرها ضوء لطيف وسكون موحش. تحركت ربما بعد دقيقة بخطوات ثقيلة إلى حانة الصبار الشوكي، وهي حانة مجاورة تستضيف معارض فنية وتحتوي على جدار يخصص لترك قصاصات أوراق صغيرة ملونة، يكتب عليها العشاق أو الأصدقاء كلماتهم المشتركة.

وصلت وتوقفت لأتأمل هذا الجدار الذي يمتلئ بعشرات القصص، أرى الآن كمشهد فلاش باك، أنا و(إيريس) قد كتبنا قصاصة مشتركة. هي كتبت عبارة بقلمها الوردي الذي كانت تحمله، أشاهد (إيريس) وهي تدفني لتعليق القصاصة، وينقطع المشهد.

أتقدم بخطواتي وأنا أتجول ببصري عسى أن أعثر على قصاصتنا. أمضيت وقتاً في البحث، وأخيراً وجدت القصاصة ولكنها مقصوصة من الأسفل. كانت عبارتي مكتوبة: «قد يكتب لنا القدر حظاً آخر». تظل عبارتي موجودة، وأسفلها الحرف الأول من اسمي، ولكن عبارة (إيريس) مقطوعة،

ويظهر فقط خط فاصل بلون وردي، وهو دليل مادي على مشاركة (إيريس).

يظل لدي أمل جديد يثبت وجود (إيريس)، نعم، مليكة زميلتي القديمة. حدث ذلك الموقف الذي تسبب في غضب (إيريس) وشعرت بغيرتها من (مليكة). أذكر ملامح (مليكة) كأنها شعرت بحدوث مشكلة ما. أتخيل ذلك الموقف وحديثي لـ (مليكة) المختصر عن (إيريس). أخذت هاتفي واتصلت بـ (مليكة) وطلبت منها أن نلتقي، ولحسن الحظ، أخبرتني أنها قريبة من المكان ويمكن أن نلتقي بالحانة اللاتينية.

وصلت إلى الحانة ووجدت طاولتي تنتظرنني. وضعت حقيبة الظهر وأنا أتلهف لقدوم (مليكة)، وكأن الأحداث تسير بإيقاعات سريعة متتالية. وصلت (مليكة) ويبدو أنها لا تملك الكثير من الوقت. بدأت عباراتي الأولى مرتبكاً، محاولاً أن تكون الصياغة مفهومة ولا تعكس ما بي من شكوك واضطرابات. أسعى ليكون سؤالنا أيضاً مهذباً وواضحاً. سألتها: «تذكرين قبل أشهر قليلة كان بيننا لقاء، هنا، في نفس هذا المكان وهذه

الطاولة وجاءت بالصدفة صديقتي المكسيكية (إيريس) وقدمتها لك، هذه صورتها؟»

مددت إليها بهاتفي، طالعت الصورة للحظات، تغيرت ملامح وجهها بعلامات الاستغراب، وأعادت لي الهاتف وردت: «نعم أتذكر اللقاء الأخير بيننا، كنت أصحح لك نصًا قصيرًا بالفرنسية، أتذكر ما حدث، نعم واستغربت كثيرًا لتصرفك، أنت نهضت وذهبت للتدخين بالرسيف ولاحظتك كأنك تكلم شخصًا، دفعني الفضول للنهوض وكنت وحدك، لم يكن أحد يكلمك وعدت وكأنك ما تزال متأثرًا بلحظة فهمت أنها لحظة إلهام وخيال، أي مبدع تأتيه لحظات تجلٍّ ورؤية الميتافيزيقي وغير المرئي.

تضخمت شكوكي الآن وعجزت عن استكمال حوارتي مع (مليكة). اقتربت مني وهي كمن يحاول مساعدتي وقالت: «أنت صديق قديم ويمكننا أن نلتقي غدًا وأي وقت، لدي فقط الليلة عيد ميلاد أختي الصغيرة ومن الغد سأكون في إجازة لمدة شهر كامل، ويمكننا أن نكمل حديثنا ندخل بمشروع ترجمة أي نص لك.»

شكرتها، اقتربت لتعانقني ولم يكن من عاداتها أن ننهي لقاءنا بالعناق. غادرت وبقيت للحظات ساكنًا، والبرودة تلفني من أخمص قدمي حتى أعلى رأسي.

عدتُ إلى شقتي بخطوات ثقيلة، ببطن فارغة، برأس مشوش. يجب أن أتناول أي شيء حتى لا أسقط. فتحت الثلاجة ووجدت اللحم المتبّل وتحضيرات عشاء مُعدّ، أخذت صحن جبن الموتزاريلا، أغلقت الثلاجة وأخذت قنينة النبيذ ثم تحرّكت لملء طاسة من المكسرات. بدأتُ بتناول بعض حبات اللوز والفسطق والزبيب، حضّرت كأس النبيذ وتناولت رشفة صغيرة.

شعرت بلذعة النبيذ الأولي، أخذت لقيمة صغيرة من الموتزاريلا، بدأتُ معدتي تتقبل هذه الجرعات واللقيمات. كررت الفعل دون التهور بالشرب. بدأتُ أشعر بالقليل من الدفء.

نهضتُ لجمع كل ملابس (إيريس) من الدولاب وسلة الغسيل وحتى الملابس الداخلية. أحصيتها ووجدتها تسعة عشر

قطعة. ضمنت هذه الملابس إلى صدري ورفعت سروايلها الداخلية. أشمها، روائح كل الملابس طيبة تفوح منها العطور. بحثت فيها، لم أصدق عيني وأنا أمسك بالقلم الوردي الخاص بـ (إيريس)، وتخيلتها الآن وهي تحكي عن قداسة هذا القلم وخصوصيته .

كان هدية من جدتها التي أحبتها حد القداسة، وحكت لي أنها تحمله كحرز أو تيممة، ولا يمكنها الخروج بدونه. أكادُ أسمع كلامها عن جدتها: «جدتي ملاك أنيق داعم لي، اهتمت بي وأنا رضيعة ضعيفة. لقد وُلدت في الشهر الثامن وتوقع البعض موتي، لكنها فعلت كل شيء كي أعيش؛ وظلت متمسكة بي إلى آخر رفق في حياتها. كانت ملاكي الحارس وأمي ومعلمتي.»

بحثتُ في أدراجي ووجدت كشوفات مصروفاتي البنكية للعام الماضي، المفاجأة الأكبر أنني وجدت فواتير كثيرة لشراء العلامات الدينية الكثيرة الموجودة بالمكان، وكذلك فواتير شراء ملابس (إيريس) بتواريخ متعددة وقديمة. قارنت التواريخ بكشوفات البنك ووجدت أنني قد اشتريت أغلبها بواسطة

بطاقتي البنكية. أحاول أن أتذكر واستدعي لقطات ومشاهد الفلاش باك، لكنها تأتي مشوشة ومهزوزة، وكذلك الصوت يأتي متقطعاً مشوشاً.

لمعت في ذهني فكرة أخيرة قد تساعدني في ما يحدث لي منذ أحد عشر شهراً ومن لحظة علاقتي بهذه الفتاة. أتواصل مع بعض الأصدقاء، وخاصة صديق ناقد وناشر ينشر لي مقالاتي ونصوبي، وهو صديق مقرب يقيم في السويد ويناديّني بالرفيق وأنا كذلك، ونادراً جداً ما ننادي بعضنا بالاسم الأول أو اللقب. نكاد نتواصل بشكل يومي. سأتصل به وأسأله عن (إيريس). سارعت بالاتصال ورد بصوت لطيف:

- مرحبا رفيق، صار يومين غائباً عنا.

- أهلين رفيق، بفرنسا هذه السنة نهاية الشتاء مرتبكة بالعواصف المطر.

- حتى عندنا بالسويد ضباب وبرد، ما أخبارك؟

- كالعادة بالكتابة والحانات. كنت أريد أسألك هل حكينا عن صديقتي (إيريس).

- (إيريس)؟ أهى نادللة أم رواية جديدة، والله يا رفيق كشرت فتياتك ونادلانك، ما صرنا نفرق بينهم لكثرتهم، تخلق فتيات ونادلالات وقد تنتهي قصصك بممارسة الحب مع واحدة وإخفاق الممارسة أو تأجيلها. (إيريس) مشروع رواية أم قصة أم قصيدة، قلت لك بصدق أنت تجرب فنوناً كثيرة متشعبة للإبداع، ونهايتك يكون لك زوجة رسمية هي السينما، وعشيقه هي الكتابة النقدية، وبقية المجالات تصير صديقات عاديات.

- ألم أتحدث معك عن (إيريس)؟

- لا، لأول مرة. أحك رفيق.

- هل حكيت لك عن علاقتي العاطفية معها؟

- يا رفيق نحن نحكي عن الإبداع وما نحكي عن مغامراتنا العاطفية، هل وقعت بحب حقيقي أم شخصية تخيلية جديدة ستمارس معها الحب، أنت ما خلّيت جميلة من الشرق والغرب إلا وتمارس معها الحب أو توعدك أنها ستفعل معك.

حاولت أن أنهي المكالمة بلطف وشكرت رفيق على الحديث الممتع. تأكدت الآن أني لم أتحدث مع رفيق عن (إيريس).

يدفعني الفضول للاتصال بالصديق (نبيل) في باريس، وهو من أصدقائي المقربين، ربما تحدثت معه عن أميرتي المفقودة.

تعصف بي الهذيان، ومنذ لحظة غياب (إيريس) لم أكتب كلمة واحدة. تذكرت صديقي (نبيل) من باريس، هو يحرص على الاتصال بي عدة مرات، يسألني عن جديدي، ويكرر دعوته لي لزيارة باريس منذ شهور طويلة. الأشهر الماضية ومنذ أحد عشر شهرًا، وأنا أعيش دنيا (إيريس) منفصلاً عن عشرات المعارف والأصدقاء. حذفت أرقام كل الصديقات الافتراضيات ولم أعد أرحب بصداقات جديدة، خاصة من الفتيات. يعتقد العديد منهن أن الشخص بدولة أوروبية أشبه ببنك سخي، وما إن ترد على واحدة بكلمة لطيفة ومجاملة، تُرسل لك طلباتها وطلبات مادية وتحقيق مبدأ الصديق عند الضيق.

تتعدد الحكايات، هذه أمها ستجري عملية وتلك سيطردها مالك الشقة بسبب التأخير في الإيجار، وحكايات كثيرة وموجعة، وقد تكون بعضها حقيقية، ولكن الوضع في بلدان أوروبا يزداد تعقيداً ويتوحش الغلاء، وتقل موارد الدخل،

خاصة للذين يعملون في مجالات الثقافة والفن. لم تعد أوروبا الثمانينيات والتسعينيات سخية في دعم الإبداع. أوروبا اليوم تشهد انقلاباً فاجعاً في دعم الإبداع الثقافي والفني. أعرف أصدقاء وصديقات وزملاء وزميلات أصولهم فرنسية، دفعتهم الظروف للعمل في مجالات بسيطة وبعيدة عن إبداعهم. بعضهم يعاني من البطالة والمساعدات التافهة، وكل هذا يجبرنا جميعاً على أن نعيش على هامش الحياة.

وأنا أفكر بالتواصل مع الصديق (نبيل)، رن هاتفني وكان المتصل (نبيل) ودار بيننا هذا الحوار:

- أخويا، متى نشوفك في باريس، شو أخبارك وجديديك؟
- أهلين، مرحباً.. قريب جداً، فقط يخلص هذا الشتاء وتطلع الشمس الحلوة.
- يا أخي، تعال إلى باريس والشمس تيجي.
- قل لي هل حكيت لك عن (إيريس)؟
- (إيريس)؟

رواية جديدة؟

- لا، (إيريس) صديقتي المكسيكية.

- مكسيكية؟

حريمك من كل بلد ولون من البرتغال وأسبانيا وفرنسا.
روايتك وقصصك الأخيرة مليئة بالحلوات.

- يعني ما حكينا عن (إيريس) ولا مرة؟

- هذه أول مرة أسمع هذا الاسم. طيب تعال، أنت
وصاحبتك والفندق على حسابي.

- شكراً نبيلو.. قريباً نلتقي، فقط أنا في دوشه وفوضى..
أخلص منها ونتواصل.

- جعلتني أقلق عليك.. أنت ترهق نفسك كثيراً بالكتابة..
خذ راحة ولو تحب نأتي ونزورك ونطمئن عليك.

- لا يا خويا. كل شيء تمام، وعندما يأتي الربيع والشمس
نزور باريس، وعد مني؟

- طيب يا غالي بالسلامة

- سلامات نبيلو. باي.

أغلقت الهاتف، وعدت إلى طاسة المكسرات وقنينة النبيذ وعلبة السجائر، كأني أحاول أن أسدل الستار على التفكير والتذكر، استسلمت للحظة الغوص في اللاشيء، أشرب وأدخن وأتناول حبات المكسرات والفواكه الجافة دون متابعة حركة عقارب الساعة ولا مراجعة كل ما حدث، كأني نسيت مكاني وزماني وكيونتي وكل شيء.

استفقت بالثالثة بعد الظهر، هذا اليوم الثالث منذ غياب (إيريس)، وجدت نفسي على الأريكة وبكامل ملابسي، أمامي قنينة النبيذ فارغة وكذلك طاسة المكسرات، وحدها نفاضة السجائر مليئة بالرماد وأعقاب السجائر. نهضت بجسدي المتناقل الضعيف ورأسي الفارغ، فتحت هاتفي ووجدت رسائل كثيرة من (مليكة)، تحاول أن تطمئن على أحوالي وتدعوني للخروج وأن نلتقي.

(مليكة)، الآن في الثلاثينيات من عمرها، أعرفها بعد فراقها مع (حورية) وربطنا صداقة وساعدتني بمراجعة لغوية لبعض

نصوبي باللغة الفرنسية. تتميز بجمال مغاربي أطلسي، أنف صغير وفم مدور بشفتين مغريتين، صدر يتقدم إلى الأمام كأنه يفتخر بنفسه، ومؤخرة بارزة جذابة. ينسدل شعرها على كتفيها ويبدو لامعًا. لديها قامة قصيرة نوعًا ما ولكنها تحاول أن تكسب بعض الطول بالأحذية ذات الكعب العالي التي تلبسها. تبدو كأنها تشترك مع (إيريس) في جعل صدرها ونهديها مرئية بشجاعة وتألّق، وتحرص على أن تجعل ساقها ملساء مكشوفة.

لا أنكر أنني انجذبت إليها لفترة، ولكنها أخبرتني يومًا بأن لديها خارطة خاصة ولا تفكر بخوض تقارب مع أي رجل وتريد تحقيق ذاتها. بعد سنوات طويلة وخلال علاقتي بـ (إيريس)، التقينا بالصدفة وأعطتني رقمها ثم كان اللقاء في الحانة اللاتينية، وظل تواصلنا متقطعًا عاديًا حتى الأمس عندما سألتها عن إيريس، وعند مغادرتها اندفعت لمعانقتي وهاهي اليوم تدعوني للخروج معها.

يبدو وكأن (مليكة) تمدها بحبل الوصال، وكان وجهها مليئًا بالرغبة المغربية، لكنني في محنة كارثية، وكل الدلائل تشير

إلى أن (إيريس) لا وجود لها وأنها محض خيال. أيعقل أنني استسلمت وصدقت ودعمت هذا الخيال بعناصر مادية؟ فأنا من اشترى ملابسها وكتبها وهذه العلامات الدينية وكل شيء. أريد أن أتخلص من كل هذا الوهم والأدوات، وأعجز عن الاعتراف أمام أي بشر وأخبرها بجنوني لمدة أحد عشر شهرًا، وأخشى أن أذهب إلى طبيب نفسي؛ فيحولني إلى مركز متابعة نفسية، حيث أتناول أدوية وجلسات ودوامة ربما تجعلني مجنونًا.

أحببت التأكد من آخر نقطة وهي سكنها. كنت أرافقها إلى سكنها، وكانت تقبلني عند مدخل المبنى في الشارع البارد، وتصعد إلى الدور الرابع والأخير، وترسل لي قبلة. أعرف مسكنها، ويوجد في أعلى نافذته مجسم حديدي لطائر الصقر بجناحين باللون الأزرق، وجسد يميل للرمادي وأرجل تميل للون الأصفر الممزوج بالبياض.

لم أذهب إلى ذلك الزقاق منذ أن جاءت (إيريس) لتشاركني السكن. قررت زيارة ذلك الزقاق، جهزت نفسي وبعثت رسالة لطيفة إلى (مليكة) للقاء بعد الساعة مساء. حالتي مزرية، ولم

أبدل ملابسني لليوم الثالث. خلعت كل هذه الملابس الثقيلة وقمت بتحريك جسدي العاري ببعض التمارين، ثم دخلت لعمل حمام منشط. أعددت نفسي وتوجهت إلى الشارع البارد.

قبل أن أذهب إلى زقاق مسكن (إيريس) القديم، توقفت في الحانة اللاتينية وسألت إحدى النادللات إن كانت قد شاهدتني مع (مليكة). ردت النادلة بعد أن رأت صورة مليكة بأنها كانت هنا قبل ساعتين وتناولت فنجان قهوة، وبعد ذلك غادرت وسألت عني. كآني هنا أريد التأكد من حقيقة وجود (مليكة) وأن لا أخرج من وهم (إيريس) وأقع بوهم آخر.

خرجت منشرح الصدر، ومشيت إلى ذلك الزقاق. ولاحظت أن هناك أعمال تجديد في السكن، شجعت نفسي وصعدت. سألت أحد العمال عن هذا السكن ومتى سستتهي أعمال التجديد. قلت له إني أبحث عن سكن. كان العامل ودوداً وهمس لي ناصحاً: «أنصحك أن تجد مكاناً آخر، حدث هنا حريق غريب بهذا السكن قبل أحد عشر شهراً، بالضبط في الثلاثين من أبريل العام الماضي، ووجدوا جثة فتاة مكسيكية

مجهولة الهوية متفحمة. نعمل هنا ونحن خائفون من شبح الفتاة، راجع ما كتبه الصحف.»

تسمرت في مكاني للحظات، سرت بجسدي قشعريرة غريبة. لقائي مع (إيريس) كان في اليوم الثاني للحريق. ربما كان هذا العامل يبالغ أو يخلق شيئاً لم يحدث أو أنه خطأ في التاريخ. تهطل على رأسي عشرات الأسئلة، وبقيت لدقائق عاجزاً عن تحريك قدمي ولو بخطوة واحدة. ثم ضربت على أفخاذي وبدأت التحرك كالمقيد بسلاسل ثقيلة.

الفصل الثالث والأخير

عدتُ إلى المنزل وأخذتُ طاسة مكسرات وقينة نبيذ، بدأتُ أشرب وأدخن، أخذتُ شهيقاً وزفيراً لتستقر حالتي ثم أخذتُ هاتفي وبحثت عن هذه الحادثة، وجدتُ عشرات المواد الصحفية، كان كلام العامل دقيقاً بخصوص التاريخ، قرأتُ مقابلة مع مستأجرة هذا السكن وهي تلخص ما حدث، وأنها تعاطفت مع فتاة مكسيكية وأسكنتها لليلة واحدة، وبعد ساعات نشب حريق بالسكن.

اسم المستأجرة لويزا، وجدتُ حسابها على إنستجرام وروايتها لكل ما حدث.

هنا رن هاتفي، شاهدتُ رقم (مليكة) وشعرتُ بحاجتي للحديث مع شخص ثقة، تحدثتُ مع (مليكة) ودعوتها لزيارتي بمسكني، رحبت بالدعوة، أرسلتُ لها العنوان، تركتُ الهاتف وبقيتُ بلا فعل أو حركة إلى أن دق جرس الباب، نزعتُ نفسي بصعوبة لفتح الباب، دخلت (مليكة) يسبقها عطر الياسمين الخفيف، بدت مغرية وجذابة بتنورتها الطويلة لنصف الساق ولكنها مفتوحة من جهة الفخذ الأيسر إلى الخصر، تلبس فانيلا خفيفة وشفافة تُظهر مفاتن كل تفاصيل صدرها.

بدأتُ كالمتلهف للحديث وإفراغ كل ما في دواخلي، أظهرت (مليكة) استعدادها لسماع القصة كاملة، تحولت بالمكان مستغربة لوجود كل هذه العلامات الدينية المتنوعة والتي تزامم بعض لوحاتي المعلقة على الجدران، أخذت (مليكة) قنينة النبيذ الوردي وفتحتها وصبت لنفسها كأسًا، بدت مبتسمة وملامح وجهها مشرقة وقد شجعني كل هذا على الكلام، حكيتُ لها القصة كاملة منذ دخولها إلى معرضي التشكيلي قبل أحد عشر شهرًا، وبداية صداقتنا وحواراتنا، وعرضت عليها ملابسها وحتى فرشاة الأسنان ومشطها وحاجاتها الخاصة جدًا مثل العطور وكريمات ترطيب الجسد والأشياء التي تحتاجها المرأة خلال الدورة الشهرية، وهذه الأشياء موجودة بالدوش والأدراج وتم استعمالها.

بقيتُ أتحديث وأحكي لمدة ساعة ونصف، ظلت (مليكة) مستمعة تهز رأسها وتدون بعض الملاحظات دون مقاطعتي.

ربما تفننت في سرد الأحداث وشجعنتني (مليكة) بفهمها وحسن تلقيها الإيجابي، عندما أكملت رفعت كأسي وشربته،

بقينا في حالة صمت لعدة دقائق، كأننا خرجنا من صالة عرض مسرحي ونحتاج إلى القليل من الصمت قبل النقاش.

بدت (مليكة) متفهمة متعاطفة مع روايتي، اقتربت مني حتى تلاصقت ركبتيها بركبتي، ولم تبال بساقها وفخذها أن ينكشف بسبب تنويرتها المفتوحة. كانت تصرفاتها عفوية، وتأقلمت بسهولة مع المكان. ثم بدأت تتحدث وتحلل هذه الأحداث، قائلة: «أنا مررت بحالة نفسية وحالة اكتئاب، وأمضيت أكثر من سنة تحت المراقبة والعلاج النفسي. وكنت أتصور قرب نهاية هذا الكون ربما بسبب هذه الحروب القاسية المنتشرة وهذا العنف الكوني. وسأحاول مساعدتك والاهتمام بك للتجاوز هذه المحنة.»

من خلال كل هذه الأحداث العاصفة التي واجهتك، أعتقد أنك قد فقدت الحدود بين الواقع والخيال بسبب كتابتك ككاتبة. الاحتمال الأول هو أنك قد تخيلت (إيريس) وخلقته، وأنت من صاغ كل هذه العناصر المادية التي تؤكد وجودها، مثل الملابس إلى باقي التفاصيل. إذا نظرنا إلى هذه الملابس، نجد أنها نظيفة

جميعها وربما لم تُستخدم، وكما أخبرك الناس في الحانات، كنت تجلس وحيداً وتطلب طلبين ولم يرَ أحد (إيريس)، ولم تظهر في سجلات الطلاب بالجامعة، ولا أحد يعرفها. لذا، الاحتمال المنطقي هو أنك أنت من خلقت (إيريس).

الشيء الآخر الذي لا يبدو معقولاً هو موت فتاة مكسيكية لم يعرفها أحد. احترقت جثتها في ظروف غامضة ولم تتعرف الشرطة على هويتها، ويبدو أن وصفك لها يتناسب كثيراً مع وصف (لويزا) لها. هل كان شبح (إيريس) هو من عاش معك لمدة أحد عشر شهراً ولماذا تركك؟ هل ممارسة المتعة حررتها وجعلتها تذهب إلى عالم الأنوار والخلود؟

هل الإله (تالوك) أحرقها كما أحرق قربتها وقتل صديقتها، أم نحن نتعامل مع سلسلة من المصادفات؟ وقد تكون قد قرأت خبر وفاة هذه الفتاة المكسيكية المجهولة وتعاطفت معها، فخلقت روايتك المدهشة.

بدأت أشعر بمنطقية تحليل (مليقة)، وكان لدي رغبة في لقاء (لويزا) لعلها تتعرف على الصورة الوحيدة لـ (إيريس)

المتواجدة في هاتفي، على الرغم من عدم وجود تفاصيل مكانية بالصورة. لأن (إيريس) كانت ترفض أخذ الصور، ولم تكن مولعة بوسائل التواصل الاجتماعي، وحتى هاتفها لا أتذكر أنها تواصلت به مع أي شخص. حاولت أن أوضح كل هذا قائلاً:

- (مليكة)، يبدو أن تحليلك منطقيّ، ولكن هل يمكنك مساعدتي لنلتقي بصاحبة السكن الذي احترقت إيريس فيه ؟»

هزت مليكة رأسها بالموافقة وأجابت: «حسنًا، سأتصل بها وسأقوم بالتنسيق لتحديد لقاء سريع وقصير. يبدو أنك مرهق جدًّا، لو تسمح لي، سأعد العشاء. هل تشعر بالجوع؟»

- قلت لها :

- بالفعل هذا اليوم الثالث وأنا أشرب نبيذ وأكلي هو المكسرات والفواكة الجافة، يوجد لحم متبل وخضار وكل شيء. نهضت (مليكة) وتجولت في المطبخ، ففتحت الثلاجة، بدأت تتصرف كأن المنزل بيتها، ودعنتي لتشارك في الطبخ. بدأت الحواجز بيننا تنهار بسرعة، وكانت تشجعني على الاقتراب والتلامس الجسدي العفوي، وفعلاً، تحرك جسدي

وشعرت بدفء المكان. خلعت معطفي وتشاركنا في الطبخ، ثم تناولنا العشاء. جاءني لحظة شك أخرى بأنني ربما يخلق خيالي (مليقة) كشخصية تعويضية وبطلة ثانية بدل (إيريس)، ولكن أفعال (مليقة) تزيل هذا الشك، إذ التقطت عدة صور لنا بهاتفها وطلبت مني أن نأخذ صورًا بهاتفني. بعدها، تلقيت اتصال واتساب من صديقي نبيل، وفتحت الكاميرا للحديث معه. اقتربت (مليقة) لتحيته وكأنها ترغب في أن تثبت لي حقيقة وجودها بطرق مباشرة أو غير مباشرة.

انتهت الليلة بسلام واختتمت، وعند مغادرتها، عانقتني بحرارة ثم قبلتني في فمي. ظللتُ جامدًا للحظات، وعادت لتكرر الفعل، ثم هزتني إليها وقبلتني للمرة الثالثة. ظلت واقفة تغمز لي بعينيها وتشير لي بكل قسما وجهها أن أقبلها. استجبت لرغبتها وفعلت ما طلبته. هنا أشرق وجهها بابتسامة بهيجة، وودعتني على أن نلتقي في الغد.

بقيتُ لأكثر من ساعة وأنا متلذذ بشفتي (مليقة) وأتذوقها في فمي، أنستني ما مرَّ بي من أحداث، أشعر بأنفاسها الساخنة

وخاصة لحظة مغادرتها، ولم أكن شجاعاً لسحبها إلى غرفة النوم، ربما يعود ذلك بسبب حالتي السيئة ولا أدري إن كانت ردة فعلي السلبية ستكون النهاية وقد لا تأتي (مليكة)، ما يُغضب المرأة ويزعجها أن لا يلبي الرجل رغبتها أو يكون غيباً ولا يشاركها لحظة قطف التفاحة وهيجان الرغبة، لا تقبل حواء وأي امرأة خطيئة أي رجل لا يقتنص الفرصة واللحظة ويلبي الرغبة.

للحظات، بقيت كمن يسترجع لقطات ومشاهد فلاش باك، وكأنها ومضات تنتهي باهتزاز الصورة والكادر. أشاهد هذا الشريط السريع وأرى نفسي أطبخ وأضحك مع (إيريس)، ثم تظهر اللقطة أنا وحدي ولا وجود لأي شخص معي، وهكذا أرى نفسي مع (إيريس) في غرفة النوم والصالة والشارع، ثم تكون اللقطة خالية من (إيريس).

تكاثرت الأسئلة في رأسي وكنت بحاجة إلى النوم والدخول في الظلمة والفراغ اللاشيء، نزعْتُ ملابسِي وقذفتُ نفسي في أمواج السرير والأغطية والوسائد وأطفأتُ الأضواء، كل ما أريده نومًا كنوم أهل الكهف، نومًا بلا أحلام ولا كوابيس.

استيقظت في العاشرة على اتصال (مليكة)، رفعت هاتفي وكان صوت (مليكة) الناعم، بشرتني أنها نجحت أن تقنع (لويزا) بلقاء قصير معنا في الواحدة ظهرًا، وأن يكون اللقاء بالحانة اللاتينية، وعرضت أن تأتي لتأخذني، شكرتها وانفقنا أن نلتقي بالثانية عشرة والنصف ظهرًا بالحانة اللاتينية، كان صوتها ناعمًا مثيرًا.

تعرفت على (مليكة) في اليوم الأول لفراقي عن (حورية)، وحاولت أن أتقرب إليها ولكنها كانت مخطوبة لفتاة ونشرت صورتها مع خطيبتها يومها على فيسبوك، وعندها بقينا مجرد أصدقاء وزملاء تصح لي بعض النصوص باللغة الفرنسية، وأعطيتها مقابل ذلك بعض الهدايا الرمزية أو القليل من المال، ثم سافرت إلى بروكسل ثم باريس ونيس وانقطع تواصلنا إلى قبل عام تقريبًا، حتى التقيتها بالصدفة بوسط مدينة (كون) وأعطتني رقمها وخلال عام كامل التقينا مرتين أو ثلاثًا، وتواصلنا مرات كثيرة بالهاتف أو عبر أنستجرام.

خلال اليومين الماضيين عاد تواصلنا وهاهي تبدي رغبة

لمساعدتي وتبدي رغبات كثيرة، عقلي الشرقي قد يرى (مليقة) القديمة التي أعلنت بشجاعة خطبتها من فتاة مثلها، أحاول تجاوز كل هذه التعقيدات وأن أنظر إلى أننا أبناء اليوم، وأن (مليقة) كانت مخطوبة أو تزوجت فتاة مثلها أو كان لها رفيق أو زوج أو مغامرات وتجارب متعددة، هي تحدثت عن نفسها وأخبرتني أنها مرت بتجارب كثيرة ومتنوعة، ولكنها الآن حرة طليقة، وكان حديثها دعوة صريحة للتقارب معي.

أحاول أن أقنع نفسي بأني ابن اليوم، يكفي التفكير في الأمس والماضي، لم تعد نيران الشوق والوله بـ (حورية) وهاهو نجم (إيريس) يخفت، مليكة الشمس المشرقة الحاضرة، وهاهي تركض نحوي وتفتح صدرها وأحضانها؛ لتساعدني على التخلص من خيالاتي المجنونة.

التقيت (مليقة) بالحانة اللاتينية وحظوت بعناقات لطيفة، تعاملت معي كالعشيقة، جاءت (لويزا)، تركتُ لمليكة أن تسألها عن (إيريس)، لم تكن (لويزا) تعرف اسم الفتاة التي أشفقت عليها لتترك لها سكنها لليلة واحدة، تحدثت (لويزا) أنها

فعلت ذلك بدافع الشفقة ولم تعرف أنها ستورط بكارثة مفزعة؛ وحكت عن مللها وتعبها من تحقيقات الشرطة والصحف، وأنها ستترك مدينة (كون) و(النورماندي) لتسافر إلى (لندن) للعمل هناك، ستترك كل شيء خلفها وتهرب من هذه القصة.

عندما فتحت هاتفني لعرض صورة (إيريس)، حدث شيء غير متوقع، إذ تعرض هاتفني - فجأة - لفيروس مدمر واكتشفت معه مسح كل الصور والملفات. تحدثت إلى (لوليزا) ووصفت ملامح (إيريس) المهمة وتفاصيل دقيقة، وافقتني لوليزا وسمعت جزءاً من قصتي، لكنها نهضت لتنهى اللقاء بقولها: «كأن هذا اللقاء لم يكن، لم نلتق ولا أعرفكم ولا تعرفونني وننسى كل شيء. لا أريدكم أن تتورطوا مع الشرطة ويُعاد فتح الملفات وندخل جميعاً في فوضى لا نهاية لها، وهذه الفوضى والتحقيقات قد تُفسد حياتنا لعام أو عامين وربما أكثر. من الأفضل ألا نتواصل، وأنا خططت للسفر غداً إلى لندن. حكاية وتراجيدية مؤلمة ولا أعرف إن كان اسمها (إيريس) أم لا، وجدتها تترجف من البرد في الشارع وأشفقت عليها ولم أتوقع لها تلك النهاية. أرجوكم لا أريد تواصلكم وأريد أن أعيش حياة هادئة.»

انصرفت (لويزا) دون توديعنا، تركتنا في حالة صمت، بقيت أنا و(مليكة) في حالة جمود وصمت لدقائق عديدة، انتفضت (مليكة) بعدها وأخذت يدي تحضني على النهوض، رفعت جسدي ووقفت على قدمي المتجمدين الباردتين، نظرت إلى (مليكة) التي اندفعت لتعانقني، وتقبلني في فمي، تكرر مشهد البارحة وقبلتني عدة مرات ثم جذبتني إليها تريدني أن أقبلها وأعيد القبلة بأحسن منها، حدقت في عينيها المليئة بالرغبة ولبيت طلبها فكانت قبلتنا طويلة دافئة، شعرت بسخونة جسدها.

همست (مليكة) وهي مبتسمة :

- لتنه هذه الرواية. أكتبها وانته منها إلى هنا. يكفي مضیعة للوقت ويكفي الألم والمعاناة، ليكن اسمها (إيريس) أو أي اسم، ذهبت إلى ما ذهبت إليه، وربما تكون في المكان الأفضل والريح، فالموت قدرنا جميعا، ربما احترق جسدها وحدث شيء ما منع روحها من الخروج إلى السموات العليا، إذن أنت ساعدها لتواصل رحلتها إلى ملكوت الأنوار، لندعها تنعم بالسلامة وننعم نحن أيضا بالسلام والحب.»

لم يرد عليها، بدا مرتبكا، وحين حملق في أوجه كل الموجودين حوله، كانت نظرات عيونهم جميعا تؤكد له حقيقة وجود مليكة؛ وأنها ليست خيالا مبتدعا كسابقتها، لكنه حين مرر بصره عند أقصى الرصيف البعيد؛ فوجئ بطيف (إيريس) هناك وهي تمر من أمام المقهى بخطوات رصينة هادئة، وحين تلاقت عيناها بعينيه ابتسمت له، وأبطأت من سيرها، فاتسعت ابتسامته وامتلا قلبه زهواً، وحين رأت (مليكة) فرحته تهلل وجهها بشراً وظنت أنه قد صار لها وحدها؛ بعد أن طوى صفحة (إيريس) واقتنع بأنها كانت وهماً وخيالاً.

النهاية

من إصدارات الروائي و الكاتب السينمائي اليمني حميد عقبي



صدر له عن دار الدراويش
باللغة الفرنسية " حورية و بلال " سيناريو
" " سيسيل " سيناريو كما صدر له باللغة
العربية "سيناريو فيلم أقنعة " و المجموعة
القصصية " ثقب " و ديوان شعري بعنوان
" تشيخ المدن بعد رصاصة حرب واحدة " و
صدرت له مؤخراً رواية " الكبش اليمني
الفحل " .

